الفصل الثالث

سلسلة جديدة من الكوارث
(1826 ـ 1798)

في عهد مولاي سليمان (1792ـ1822) وبداية عهد خلفه مولاي عبد الرحمن (1822ـ1859)، تعرض المغرب لثلاث كوارث طبيعية جديدة تركت كل واحدة منها بصماتها على حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ الأولتان تمثلتا في طاعوني 1798ـ1800 و1818ـ1820، والثالثة في مجاعة 1825ـ1826. وسنحاول فيما يلي تتبع مراحل هذه الكوارث في الزمان والمكان واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها من نتائج.

1 ـ طاعون 1798ـ1800

أ ـ ما قبل الطاعون

من المؤكد أن المغرب استمر يعاني لمدة طويلة من آثار المجاعة السابقة، لكنه كان قد تمرس بغضب الطبيعة واكتسب القدرة على امتصاص ضرباتها لمعاودة النهوض تدريجيا بصبره المعهود. وقد ساعده على ذلك أن السنوات التي تلت المجاعة مباشرة، والتي تمثل ما تبقى من عهد سيدي محمد بن عبد الله، كانت خلوة من الجوائح الطبيعية. من الحق أن مصادرنا لا تزودنا بمعلومات تشفي الغليل في هذا المجال، لكنها تشير إلى استئناف تصدير الحبوب، وهو الأمر الذي لم يكن يحدث عادة إلا مع جودة الحاصلات. يذكر محمد الضعيف في هذا الصدد أن السلطان أمر ببناء مرسى الدار البيضاء عام 1199/1784ـ1785، وأذن للنصارى بأن يحملوا منها القمح، ثم يضيف أن

السفن الأوربية الواردة الى المرسى تكاثرت عام 1303/1788ـ1789 بعد أن سمح السلطان بتصدير ما يمثل حمولة 50 سفينة[1]. من جهته، يخبرنا توماسي (Thomassy) بأن اسبانيا استوردت من المغرب كمية كبيرة من القمح خلال هذه الفترة، ولعدة سنوات، بمعدل 50.000 فانكة في السنة[2].

يمكننا القول إذن إن السنوات التي تلت مباشرة المجاعة السابقة كانت سنوات طيبة، أتيحت فيها الفرصة للسكان لتضميد جراحهم. لكن لفترة قصيرة فقط، إذ لم تكد آثار تلك المجاعة تبدأ في الانقشاع، حتى تعرضت البلاد لسلسلة من السنوات العجاف أقضت مضاجعها من جديد.

والواقع أن معلوماتنا عن هذه الشدة الجديدة معلومات قليلة، لا تزيد عن كونها إشارات من هنا وهناك؛ فهناك إشارة أولى إلى أن محصول عام 1789 جاء عاطلا بسبب الجفاف، وأن السلطان منع تصدير الحبوب[3]، ثم اشارة أخرى الى تواصل الجفاف في السنة التالية وتنظيم صلوات الاستسقاء، وارتفاع أسعار الحبوب الى حد أنها تضاعفت أربع مرات[4]، أخيرا هناك معطيان آخران، الأول يفيدنا بأن البلاد قاست مرة أخرى من الجفاف عام 1791[5]، والثاني يفيد بأن سعر القمح ارتفع في الرباط وسلا في شهر شوال 1205/يونيو ـ يوليوز 1791، إلى 11 أوقية للمد[6].

هل تعرض المغرب لمجاعة أخرى بسبب هذا الجفاف المتواصل ؟ حول هذا السؤال تلوذ مصادرنا بصمت تام. لكن في مخطوط تحت عنوان «أجوبة لنوازل فقهية»[7]، نرى أحد الفقهاء، محمد ابن عبد السلام بن ناصر (توفي عام 1824)، يصبّ جام غضبه على أحد معاصريه الذي أخطأ فيما أفتى به، وقد أجاب هذا المفتي، حين ألقى عليه السؤال، بجواز بيع الآباء أبناءهم لسد حاجيات معاشهم في المسغبة التي حلت سنة 1208/1793[8].

---

(1) الضعيف (محمد)، 1986، م. س.، ص 187 و198.

(2) THOMASSY (R.) **Le Maroc et ses caravanes** ; 2ème éd., Paris, 1845, pp. 326 et 328.

(3) LEMPRIERE ; 1801, op. cit., p. 359.

(4) م. ن.، ص 319.

(5) BOIX, 1949,, op. cit., p. 19.

(6) الضعيف (محمد)، 1986، ص 226.

(7) مخطوط خ ع، د 1079، أوراق 108ـ114.

(8) م. ن. انظر أيضا الأخضر (محمد) «جوانب من الحياة الأدبية» م. س.، ص 376.

على ضوء هذه الشهادة إذن، قد تكون المجاعة تفشت بالفعل، وقد تكون اتسمت بالحدة طالما أنها أجبرت الآباء على بيع أولادهم، إلا أن مصادرنا لا تزودنا بأية تفاصيل، لذا يتعذر علينا الوقوف عندها.

ب ـ أخطار الطاعون :

بعد طاعوني منتصف القرن، اللذين تعرضنا لهما في الفصل الأول، يبدو أن المغرب عرف فترة استراحة طويلة امتدت زهاء نصف قرن. إلا أن أخطار العدوى ظلت كامنة ؛ منذ 1783، كان الوباء متفشيا في الاسكندرية على أبواب البحر الأبيض المتوسط[9]. في السنة التالية نقله الحجاج والتجار الى تونس، ولم ينقطع أثره منها إلا بعد زهاء 17 شهرا، وبعد أن فتك بثلث السكان حسب البعض، وبسدسهم حسب البعض الآخر[10]، ثم انتقلت العدوى من تونس الى الجزائر على الرغم من الاحتياطات التي اتخذها داي قسنطينة، وبقيت سارية بها الى سنة 1787، وقدر عدد ضحاياها بـ 16.121 ضحية[11]، في نفس السنة التي أصيبت تونس والجزائر، كاد المغرب يصاب بدوره بعد وصول سفينة موبوءة الى طنجة وعلى متنها عدد من الحجاج المغاربة[12]. من المشرق أيضا، تسرب الطاعون الي الجزائر سنة 1792، ومكث بها الى منتصف يوليوز من السنة التالية. وفي سنة 1797، ظهر من جديد في كل من الجزائر وتونس[13].

لقد بقي المغرب ـ على الأقل حسب مصادرنا ـ بمنجى طيلة هذه السنوات الرهيبة. فهل كان يتخذ احتياطات وقائية ؟ في الواقع، لم تكن توجد في البلاد أية ادارة لتنظيم الحجر الصحي، ألا إن هذا لم يكن يحول دون اتخاذ بعض التدابير الآنية. من ذلك أن سيدي محمد بن عبد الله أقام نطاقا عسكريا في الحدود الشرقية لوقاية مملكته من الوباء المتفشي وقتذاك في الجزائر[14]. وابتداء من 1792، بدأت الهيئة القنصلية المقيمة بطنجة في اتخاذ اجراءات صحية وقائية على الواجهة البحرية، وقد تمكنت سنة 1793 من انتزاع موافقة مولاي سليمان على فرض حجر صحي ضد الجزائر، امتد من يونيو الى أكتوبر ؛ وفي يوليوز

---

(9) PROUST (A.A.) : **La défense de l'Europe contre la peste** ; Paris, 1897, p. 67.

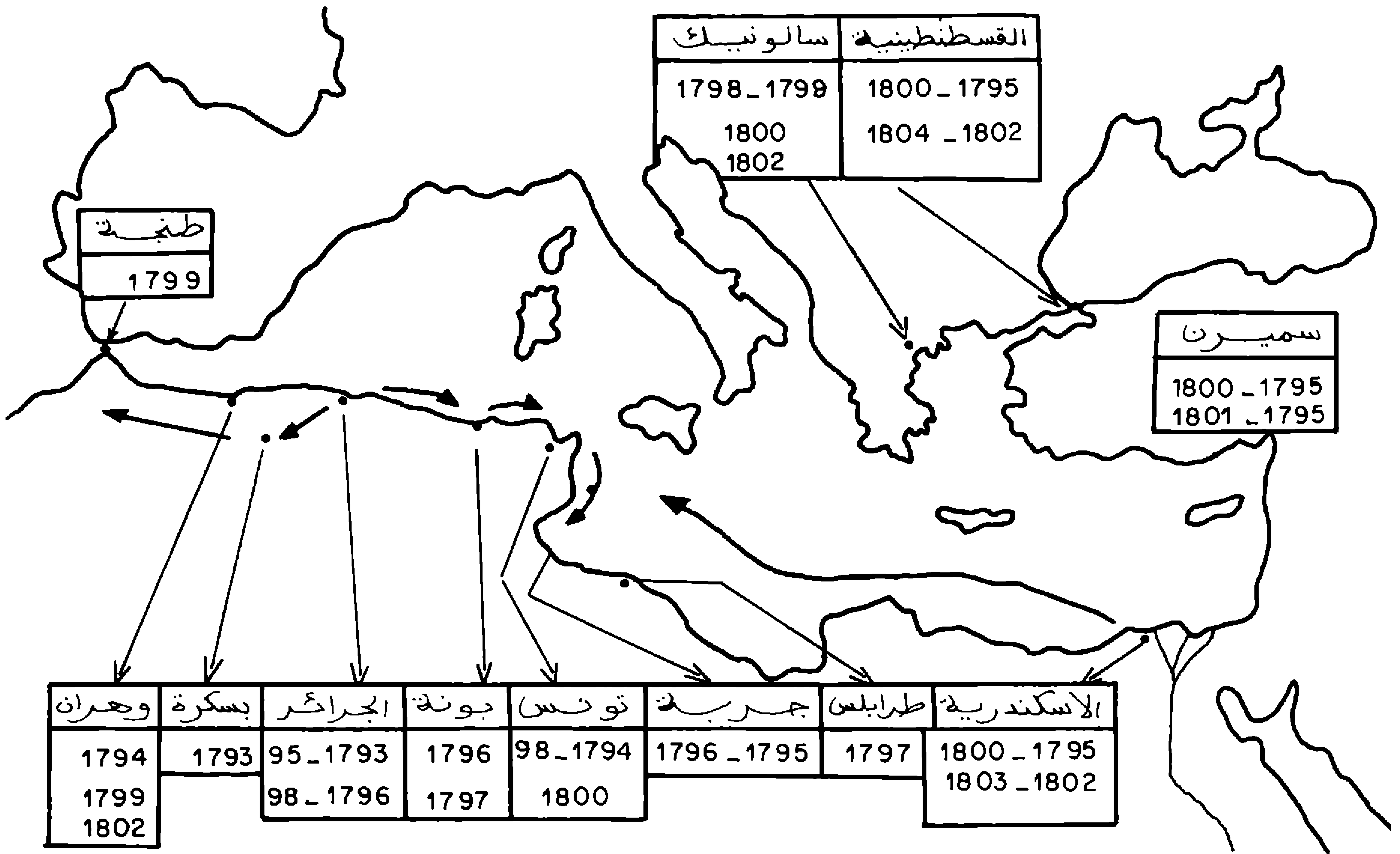
(10) VALENSI (L.) : "Calamités démographiques en Tunisie et en Méditerranée orientale aux XVIII^e et XIX^e siècles" ; in **Annales E.S.C.**, nov.-déc., 1969, p. 1571.

(11) MARCHIKA, 1927, op. cit., pp. 110-111.

(12) PROUST ; 1897, op. cit., pp. 135-136.

(13) GUYON ; 1855, op. cit., p. 358.

(14) R.C.S./I, n° 856.



الخريطة 1 - الطاعون في حوض البحر الأبيض المتوسط (1793 - 1804)

من عام 1797، حصلت من السلطان على ظهير خاص ينص على فرض الحجر الصحي على السفن القادمة من وهران وشل جميع المواصلات القارية في الحدود الشرقية[15]. بفضل هذا التدابير، وبفضل عامل الحظ أيضا، بقي المغرب بمنجى في الوقت الذي كانت البلدان المجاورة ضحية للطاعون. غير أن هذه المهلة لم تكن سوى استراحة، فقد داهم الوباء البلاد من جديد، وبصورة رهيبة هذه المرة. ففي أي تاريخ بالضبط جاءت زيارته ؟ وعبر أي طريق ؟

هناك رواية أولى تزعم أن الوباء دخل مع الحجاج عبر الطريق البحري، وذلك في صيف 1799، إلا أن هذه الرواية التي تناقلها الكثيرون، من أمثال توماسي[16]، وكودار[17] ورينو[18]، أصبحت اليوم متجاوزة بعد التحريات التي قام بها الطبيب الفرنسي رونو. فقد بين هذا الأخير، اعتمادا على المراسلات القنصلية الفرنسية، وإلى ملاحظات القنصل الانجليزي دجاكسون (Jackson)، أن الوباء ظهر منذ أبريل 1799، كما أنه نفى مسؤولية الحجاج في استجلابه، مبينا كيف أن طنجة ـ بوابة المغرب البحرية ـ لم تصب إلا في شهر نوفمبر 1799، أي بعد أن أصيبت جل جهات البلاد[19]. أما فيما يتعلق بمصدر الوباء، فقد أظهر رونو أنه انتقل من الجزائر عبر الطريق القاري، وهو مايبدو محتملا، نظرا لأن الطاعون كان متفشيا في تلمسان منذ 1798.

ثم أضاف رونو في بحث آخر[20] توضيحا جديدا اعتمادا على رواية مغربية جديدة، وهي رواية محمد الضعيف الذي أشار إلى ظهور الوباء منذ شهر فبراير 1799. يقول الضعيف «وفي (10 من رمضان (15/1213 فبراير 1799) خرج مولاي الطيب من فاس الجديد بعد أن أتى من مكناس عاملا على تادلا والشاوية وخليفة أحمد بن عبد المالك الدريكي، وكان الوباء بفاس الجديد وقصبة اشراكة وفي أولاد جامع وكثر الموت في الناس وكذلك اشراكة[21].

---

(15) منذ 1792 أسست الهيئة القنصلية بطنجة مجلسا خاصا عرف بـ «خونطة» القناصل، وكان النواة الأولى لتأسيس المجلس الصحي الدولي بالمغرب. حول تأسيس المجلسين، والاجراءات الوقائية المتخذة، وموقف المخزن، انظر رسالتنا «المجلس الصحي الدولي بالمغرب»، كلية الأداب والعلوم الانسانية بالرباط، 1980.

(16) THOMASSY ; op. cit., p. 408.

(17) L. GODARD : **Description et histoire du Maroc** ; Paris, 1860, t. 2, p. 573.

(18) L. RAYNAUD, 1902, op. cit., p. 80.

(19) H.P.J. RENAUD "La peste de 1799", **Hespéris**, 1921, pp. 160-182.

(20) H.P.J. RENAUD "Un nouveau document marocain sur la peste de 1799" ; **Hespéris**, 1925, pp. 83-90.

(21) الضعيف (محمد)، 1986، ص 313 و314.

هذه التحريات التي قام بها رونو تتفق مع المعلومات التي استقيناها من مصدر آخر، ونعني به سجل «المجلس الصحي الدولي بالمغرب». فأول اشارة إلى ظهور الوباء في هذا السجل ترجع بالفعل إلى شهر فبراير(22)، وحسب نفس السجل، فإن الجهات المنكوبة في ذلك التاريخ هي نواحي مليلية وقلعية وفاس. إلا أن ثمة مشكلة تظل مطروحة. فإذا كان عدد الضحايا مرتفعا جدا منذ شهر فبراير، كما يشير إلى ذلك محمد الضعيف، فإن هذا يفترض أن يكون الوباء قد ظهر في تاريخ سابق، إذ أن ضرباته عادة ما تكون محدودة في البداية، ولا يكثر الموت به إلا بعد مرور وقت معين. كان من الممكن أن تبقى هذه المسألة معلقة لولا أننا أصبحنا نتوفر اليوم على رواية مغربية جديدة أخرى سجلت منذ 7 محرم 11/1214 يونيو 1799، أي في طراوة الوباء، مما يجعلها جديرة بالثقة. ويتعلق الأمر برواية عبد السلام بن سليمان الفشتالي. يقول هذا الأخير

«فشا الطاعون بالمغرب أول ما ظهر بقبيلة لوداية حتى فنى من شاء الله بمحلتهم... ودخل القصبة وفاس الجديد منتهى جمادى الثانية عام ثلاث عشر ومائتين وألف (9 دجنبر 1798) حتى تحيرت الناس وفتنوا (كذا) الأغنياء من كثرة الموتى وجعلت الناس ترمي كواشط الموتى وحوايج لباسهم بين الطروق (كذا). دخل فاس أواخر شعبان من العام المذكور (5 فبراير 1799) حتى ازداد أمره واشتد بأول شوال (8 مارس)»(23).

على ضوء هذه الرواية الحاسمة نستطيع القول إذن إن الوباء ظهر بفاس الجديد منذ نهاية سنة 1798، ثم استشرى تدريجيا، فدخل فاسا البالي في 5 فبراير 1799، وبلغ ذروته في شهر مارس من السنة نفسها.

ج - طبيعتــه

بعد الحسم في تاريخ ظهور الوباء، يبقى علينا تحديد طبيعته. هنا لا نجد أي إشكال، فالأوصاف المسهبة لأعراض المرض، التي تمكنا من الوقوف عليها، تتضمن إشارات واضحة إلى الدماميل والقيء والاسهال مما لايدع مجالا للشك في كونه طاعونا حقيقيا. يقول المشرفي : «وفي رأس هذا القرن منذ سنة 13 (وقع) موت الطاعون وهو خروج شيء في مغابن الانسان كإبطيه يشبه الجوزة يسود ما حولها أو يحمر... يمرض الانسان أياما عديدة وربما يعيش

(22) R.C.S./I n° 119.
(23) الفشتالي، تقييد في وباء 1798ـ1800، في مجموع مخطوط خ ر، د 283، ورقة 125ـ126.

ولما يطعن به الانسان فيتقيأ ما يشرب لا يكاد يصبر على الماء ويقع له اسهال في البطن أنثى من الجيفة...»[24].

ويظهر من هذا الوصف أن الأمر يتعلق بالطاعون الدملي الذي تتروواح نسبة الوفاة به بين 65 % و90 %.، لكن بموازاة هذا النوع من الطاعون ظهر نوع آخر نستشفه من الوصف الذي قدّمه القنصل الانجليزي دجاكسون : «إن المريض الذي كانت تأخذه القشعريرة ولم تكن تظهر عليه الدماميل، كان يموت في ظرف 24 ساعة وكانت جثته تتعفن بسرعة»[25]. تدل هذه الاعراض على الطاعون الرئوي الذي يتميز بحدة الأعراض العصبية ويؤدي إلى الموت في ظرف 24 أو 36 ساعة، أما نسبة الوفاة به فتصل إلى المائة في المائة.

د ـ انتشاره :

تجدر الاشارة في البدء إلى أن الهيئة القنصلية بطنجة حاولت منذ البداية دفع السلطات المغربية إلى اتخاذ بعض التدابير الوقائية للحيلولة دون انتشار الوباء[26]. وعلى ما يبدو فإنها تمكنت بمساعدة هذه السلطات، من فرض حجر صحي على مليلية وإقامة أحزمة صحية حول طنجة والعرائش وتطوان. إلا أن هذه التدابير كانت محدودة وضعيفة. لذلك سرعان ما عم الوباء «قطر المغرب كله»، سيما وأن الظروف المحلية شكلت بنية استقبال مناسبة لتسريع حركية العدوى.

بالفعل فقد ظهر الطاعون والمغرب يعيش، كما لاحظ باسكون بالنسبة للحوز، «ذروة أزمة لا مثيل لها في نهاية قرن تتالت فيه شتى ضروب المحن، من حروب أهلية وقحوط ومجاعات»[27]. ولكي لا نتحدث إلا عن جانب من هذه المصاعب، نشير إلى أن القحط كان شديدا سنة 1798 بحيث إن ثمن المد الواحد من القمح ارتفع خلالها من أربع أواق سنة 1796 إلى 12 أوقية[28]. وفي شتاء 1799 شحت المواد الغذائية إلى حد أن المعاصرين توهموا في بداية ظهور الوباء أن الأمر يتعلق بمجرد وباء خفيف «جاء في أعقاب القحط»[29]. زاد الأمر سوءا مع وطأة الجفاف، إذ يخبرنا محمد الضعيف بأن الناس خرجوا لإقامة

(24) المشرفي (العربي) «أقوال المطاعين»، خ ح، رقم 2154، ص 9 (أ ـ ب).

(25) RENAUD, 1921 ; p. 14.

(26) R.C.S./I n° 119.

(27) P. PASCON : **Le Haouz de Marrakech** ; Rabat, 1977, t. 1, p. 195.

(28) M. AL-MANSUR **Political and social development in Morocco under the reign of Moulay Sulayman (1792-1822)** Thèse de Doctorat (Université de Londres, 1981), t. 1, p. 97.

(29) A.E.P./CCM, t. 21, Mogador 11 Messidor an VII.

صلاة الاستسقاء في 5 رمضان 10/1213 فبراير 1799[30]. ثم بعد هذا انقضت جحافل الجراد وانتشرت في كل جهة، بل وصلت حتى إلى طنجة[31].

إلى هذه العوامل الطبيعية، التي مهدت الأرضية أمام انتشار الوباء، ينبغي أن نضيف عاملا من صنع البشر، ونعني به تحركات «محلة» السلطان مولاي سليمان.

لقد قرر السلطان تنظيم حملة إلى الجنوب قصد اخضاع قائد عبدة وآسفي عبد الرحمان بن ناصر، وهذا في الوقت الذي كان الطاعون متفشيا في فاس ومكناس. على أنه ليس من المستبعد أن يكون قد عجل بخروجه في اتجاه الجنوب فرارا من الوباء. ذلك ما يمكن أن نستشفه من رواية الفشتالي المتكتمة هاته «وفي هذه السنة (1213هـ) حرك مولاي سليمان... لأرض مراكش ومعه خلق كثير ولم يكن لسفره، دليل ولا موجب»[32]. مهما يكن فقد خرج السلطان من مكناس في 11 أبريل على رأس جيش كثيف، بينما كان قائده عياد قد غادر فاسا في اليوم السادس من الشهر نفسه على رأس جيش الأوداية. في 21 أبريل وصل السلطان إلى سلا والرباط، وكان الطاعون قد سبقه إليهما مع طلائع الجيش. فقد أشير إلى ظهوره بالعدوتين في 18 أبريل، وفي اليوم التالي اشتدت وطأته بهما حيث كان يخلف 130 ضحية في اليوم[33]. لذا اضطر السلطان إلى مغادرة الرباط على عجل والهروب بسرعة في اتجاه الجنوب مرورا بالدار البيضاء وآسفي. في هذه المدينة الأخيرة خفّ ابن ناصر لاستقباله مظهراً بذلك طاعته. ومن آسفي انتقل السلطان إلى الصويرة في شهر ماي، ومنها إلى مراكش التي اضطر إلى اختصار مدة مقامه بها لتفشي الوباء فيها، فخرج في اتجاه مكناس (يوليوز).

خلال هذه «الحركة» تفشى الوباء في السهول الساحلية والأقاليم الجنوبية، ومسؤوليتها واضحة سواء في المصادر الأجنبية أو المغربية. ففي 6 غشت كتب قنصل انجلترة بطنجة يقول «إن جيش السلطان قد نقل العدوى من فاس إلى الرباط ثم إلى باقي السهول الأطلنتكية[34]. من جهته يخبرنا دجاكسون بأن

---

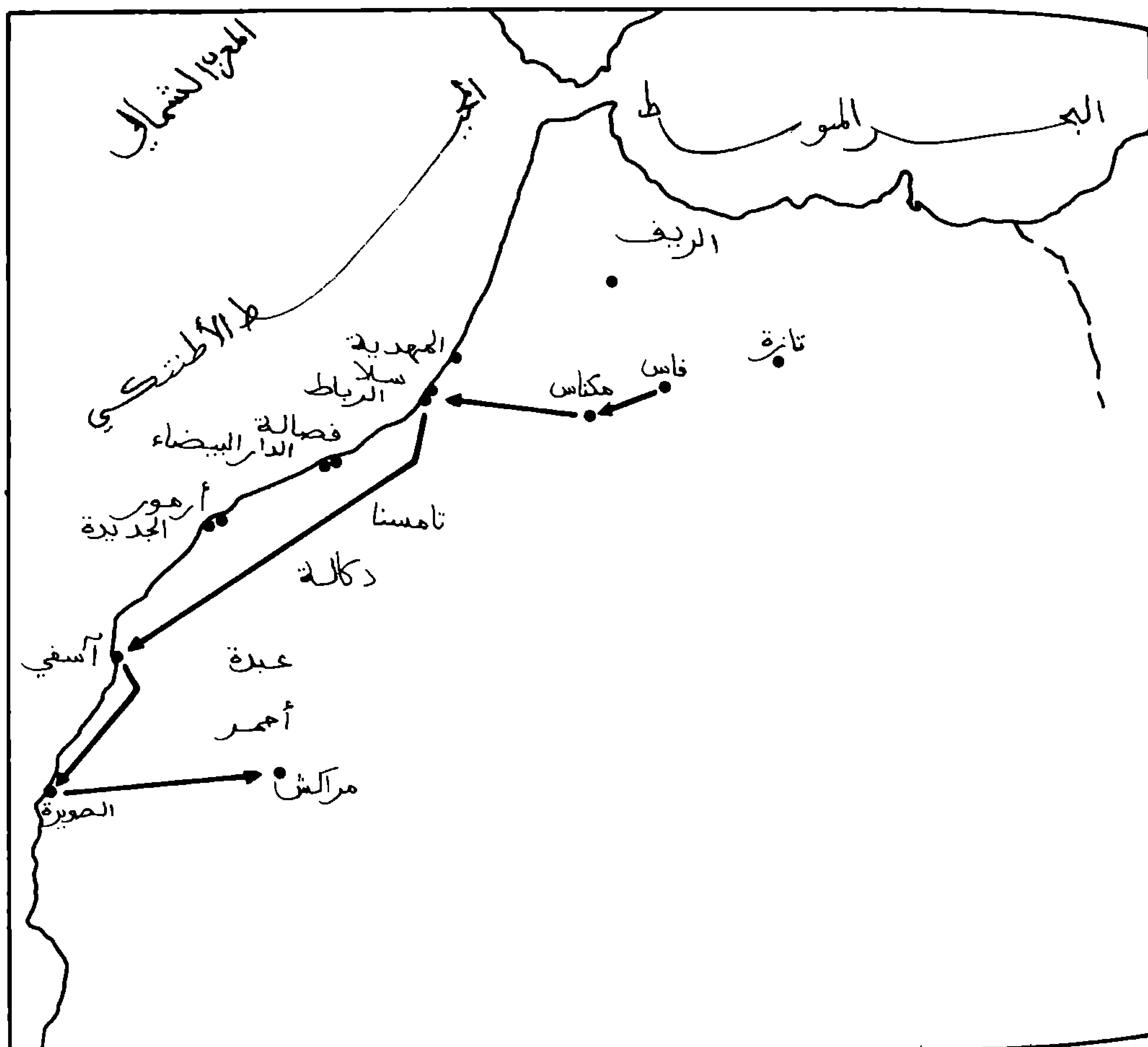
(30) في 5 رمضان 10/1213 فبراير 1799، نظمت صلوات الاستسقاء بمراكش محمد الضعيف، 1986، ص 314.

(31) AL-MANSUR, 1981, op. , p. 97.
T 6 1, Roll 1, Tanger 30-7-1799.

(32) الفشتالي، مصدر سبق ذكره، ورقة 125.

(33) MICHEL 1982-83, op. p. 74.

(34) -MANSUR 1981, op. cit. p. 196.



الخريطة 2 ـ «حركة» مولاي سليمان (1799)

الجنود الذين كانوا يتهالكون صرعى الوباء كانوا يدفنون فورا بحوائجهم لكي تواصل القبائل، التي لم تكن قد تفطنت بعد إلى أمره (الوباء)، تزويد الجيش بالمؤن[35]. بيد أن محمد الضعيف هو الذي يقدم لنا أفضل مثال فيقول : «وارتحل السلطان من عين عتيق لناحية آسفي وذلك يوم الخميس 29 من ذي القعدة عام 1213 (4 ماي 1799) وبات بوادي بوزنيقة، وفي كل يوم يموت من جيش السلطان كذا و كذا بالوباء إلى أن قطع وادي أم الربيع وكأنه نهض بجندين جند من العسكر وجند من الوباء، ولم يكن الوباء بدكالة وعبدة واحمر وغيرهم حتى دخل السلطان ببلادهم»[36].

وكما تسببت هذه «الحركة» في زرع الطاعون في السهول الأطلنتيكية والأقاليم الجنوبية، فلا يستبعد أن تكون قد ساهمت، بشكل غير مباشر، في نشره في الأقاليم الشمالية بعد عودة الجنود إلى مواطنهم. كان القلق من هذا الاحتمال يقض مضاجع الهيئة القنصلية بطنجة. فقد كتب قنصل الولايات المتحدة يقول في يونيو 1799 «إن طنجة تتمتع بصحة جيدة، لكن يخشى أن ينتقل إليها الوباء بعد عودة المائة جندي الذين كانوا قد غادروا هذه المدينة للمشاركة في حركة السلطان إلى الجنوب»[37].

* * *

بسبب هذه العوامل اذن امتد الوباء على نطاق جغرافي واسع، فتفشى أولا في حوض سبو في أبريل ـ ماي 1799، واندلع في سهول الشاوية ودكالة وعبدة والحوز في يونيو ـ يوليوز. وتوغل في سوس خلال غشت ـ شتنبر. وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها القناصل، واصل زحفه كالسيل الجارف مكتسحا كل الحواجز في طريقه. وهكذا فقد ضرب تطوان وطنجة في شهر نوفمبر. وتمادى إلى السنة التالية ضاربا الجهات التي أخطأها سابقا، ولم ينقطع أثره إلا مع نهاية 1800[38].

---

(35) MICHEL ; 1982-83, op. cit., I, p. 74.

(36) الضعيف (محمد)، 1986، ص 315.

(37) T 6 1/Roll. Tanger, 24.6.1799.

(38) لمزيد من التفاصيل، انظر

EL-BEZZAZ (M.A.) "La peste de 1798-1800 au Maroc" ; in **Hespéris- Tamuda**, 1985, pp. 57-81.

وكذلك **مجلة دار النيابة**، ع2، ربيع 1984، ص 52-62.

هـ . الضحـــايـــا

يمكن أن نكون فكرة تقريبية عن ضحايا هذا الطاعون من خلال استنطاق بعض الروايات التي، وإن كانت تفتقر إلى الدقة المطلوبة، فإنها تعكس على الأقل فداحة الخسائر.

ـ الروايات الأجنبية

يتفق الملاحظون الأجانب، الذين عاصروا الوباء، على القول بأنه أحدث انهيارا ديموغرافيا كبيرا إلى حد أن كثيرا من المدن خلت من سكانها. وهكذا فإن القنصل الانجليزي دجاكسون يقدم أرقاما مدهشة عن عدد الضحايا الحضريين، فيما يلي بعضها:

ـ فاس:	65.000 ضحية	ـ آسفي	5.000 ضحية
ـ مراكش:	50.000 ضحية	ـ الصويرة:	5.500 ضحية

كما نرى فإن هذه الأرقام تكتسي قيمة أدبية أكثر منها وثائقية نظرا لما تنطوي عليه من غلو مفرط، على أن كل التقديرات التي لدينا في الموضوع تسير في نفس الاتجاه. فبالنسبة لفاس يذكر القنصل الفرنسي بطنجة كيلي (Guillet) أن الخسائر بها بلغت يوميا 700 و800 ضحية، بينما بلغ عدد الضحايا بها منذ ماي 1799 30.000 ضحية[40]. ويفيدنا الرحالة الانجليزي كورتس (Curtis)، الذي زار فاسا سنة 1801، بأن الوباء فتك بحوالي 15.000 شخص في حي واحد من أحياء المدينة، بحيث لم يبق على قيد الحياة في هذا الحي سوى 30 شخصا[41].

بخصوص الرباط، نتوفر على مراسلات جديدة ترجع إلى مارس - يونيو 1799، وهي صادرة عن تاجر فرنسي كان متواجدا بالمدينة وقتذاك. من خلال هذه المراسلات نتبين أن عدد الضحايا لم يكن يتجاوز في البداية 20 إلى 25 ضحية في اليوم[42]، ثم هبط العدد إلى 10 و12 ليرتفع تدريجيا إلى أن بلغ

(39) JACKSON (J.G.) **An account of the Empire of Morocco**, Londres, 1809.
وكذلك GYON 1855, op. cit., p. 360.

(40) A.E.P./CCM., t. 21, Tanger 14 Prairial an VII (2.6.1799).

(41) AL-MANSUR ; 1981, op. cit, t. 1, p. 199.
تذكر مراسلة من الرباط بتاريخ 27 ماي 1799 أن عدد الموتى بفاس بلغ 1.000 و1.200 ضحية في اليوم (A.T./104). من جهة أخرى يؤكد الطبيب الفرنسي رينو أن مدينة فاس أصبحت خالية تماما من سكانها عند عودة مولاي سليمان إليها من الجنوب
RAYNAUD ; 1902, op. cit., p. 81.

(42) A.T./104 Lettres de Douttier à A. Guillet, Salé, 26 mars et 1er mai 1799.

100 ضحية في اليوم في نهاية ماي[43]، إلا أن أكبر الخسائر هي التي سجلت في بداية الشهر التالي 170 ثم 250 ضحية في اليوم[44]. ومع بداية فصل الصيف أخذ الوباء في الانحسار وهبطت به الخسائر في 24 يونيو إلى 63 و70 ضحية في اليوم[45]. وحسب المراسلات نفسها فإن الوباء تفشى بنفس الحدة بسلا وكان يخلف بها في حدود 24 يونيو 150 إلى 160 ضحية في اليوم[46].

بالاضافة إلى هذه التقديرات تتضمن هذه المراسلات إشارات هامة إلى ارتفاع الخسائر بين الاناث بالنسبة للذكور، وإلى حالة الذعر بين السكان الذين كثر هروبهم إلى البادية أو إلى مدن أخرى إلى حد أنه كان يتعذر إيجاد من يتولى تجهيز الموتى[47]. أما التجار الأوروبيون فقد أغلقوا عليهم دورهم باستثناء المدعو أندري ري بيجيو (A. Biggio)، وهو من أصل جنوي، الذي واصل سيرته العادية ففتك به الطاعون في 23 يونيو[48].

نلاحظ أن الوباء اتسم في الرباط بقوة تدميرية كبيرة، إلا أن هناك من بالغ في تقدير مجموع خسائرها، فقدم رقم «20.000»، أي ما يعادل ثلثي سكانها[49].

إذا انتقلنا إلى المدن الجنوبية، نجد أرقاما أخرى مدهشة ترمز إلى فداحة الخسائر. فالقنصل الأمريكي (J. Simpton) يذكر في مراسلة 9 يوليوز 1799 أن الوفيات بلغت في مراكش 500 ضحية في اليوم[50]، ويضيف في مراسلة أخرى بتاريخ 30 يوليوز أنه توفي بها 8.000 ضحية في ظرف أربعة أيام، أي بمعدل 2.000 في اليوم[51]، ويشير في مراسلة 17 غشت إلى أن الوباء يخلف في الصويرة 60 إلى 70 ضحية في اليوم[52]. من جهته، يخبرنا القنصل الفرنسي بروصوني (Broussonnet) بأن الوفيات بلغت في تارودانت 800 ضحية

---

(43) A.T./104, Salé 4.6.1799.

(44) A.T./104, Salé 25.6.1799.

(45) الرسالة المذكورة في الهامش 44.

(46) الرسالة نفسها.

(47) نفسها.

(48) نفسها.

(49) GODARD 1855, op. cit., t. 2, p. 574.

(50) T 6 1 / Roll 1, Tanger 9.7.1799.

(51) T 6 1 / Roll 1, Tanger 30.7.1799.

(52) T 6 1 / Roll 1, Tanger 17.8.1799.

في اليوم، مضيفا أن حامية مخزنية بالمدينة لم ينج منها سوى جنديين من مجموع 1.200 جندي[53].

بالاضافة إلى هذه الأرقام، تطالعنا في المراسلات الأجنبية بعض الفصول المأساوية التي كانت تجري في هذه المدن. من ذلك أن الناس كانوا يلقون بالجثث في حفر كبيرة، وقد يتركونها في العراء لتنهشها الكلاب والطيور الكاسرة. وأمام شبح الفناء، عم اليأس والاستسلام، وتهافت الموسرون على شراء الكتان لتلف به جثثهم حينما يأتي دورهم، كما عمدوا إلى إفراغ مطاميرهم وتوزيع ما تختزنه من أقوات على الفقراء، وتهييئها بذلك لتكون مقرهم الأخير[54].

هذا فيما يخص العالم الحضري، ولنلق الآن نظرة سريعة على الحالة في البادية، ودائما من خلال نفس الروايات.

يحدثنا دجاكسون في هذا الصدد بأنه شاهد خلال تجوله بإقليم حاحا، مباشرة بعد الوباء، عدة قرى مهجورة كانت فيما يقول مزدهرة بالأمس القريب[55]، ثم يقدم بعض الأمثلة فيذكر أنه لم ينج في قرية الديابات، الواقعة جنوب الصويرة، سوى 23 شخصا من مجموع 133 نسمة[56]، ويضيف أنه لم يسلم في قرية أخرى سوى أربعة أفراد من مجموع 800 نسمة، وفي ثالثة لم يبق على قيد الحياة سوى سبعة أو ثمانية من مجموع 500 أو 600 نسمة[57].

فالرواية تظهر لنا أن الطاعون صيّر البادية المغربية قفرا بلقعا، مما يدعو إلى إعادة النظر في الأطروحة التي تفترض أن الوفيات تكون عادة أدنى في القرية منها في المدينة زمن الطاعون.

- الروايات المغربية

كما هو معروف، استأثرت الأوبئة العنيفة بانتباه أصحاب الحوليات والتراجم المغربية ولو أنهم لم يخصصوا لها في كتاباتهم سوى إشارات وجيزة لا تكاد تشفي الغليل. أما ما تركوه لنا عن هذا الوباء، فيشكل حالة استثنائية من حيث كثرة الاشارات، وحتى بعض التقديرات عن عدد الضحايا. فصاحب

---

(53) RENAUD ; 1921, p.
(54) JACKSON 1809, op. cit., p. 174.
(55) نفسه، ص 178.
(56) ن.
(57) م. ن.

«الابتسام» يصف المرض بـ «الطاعون الكبير» الذي عم بوادي المغرب والأمصار وخلت بسببه الخيام والديار[58]. ويقول في موضع آخر «كان موتا ذريعا كاد أن يفضي إلى الفناء»[59]. ويستعمل الفقيه السوسي المانوزي نفس العبارة فيقول : «أخلى (الوباء) البلاد من العباد»[60]. ويؤكد آخرون عنف الوباء بطريقة غير مباشرة. فمنهم من اختاره للتوقيت والتأريخ، مما يدل على أنه كان من الأحداث الكبيرة التي احتلت مكانة بارزة في ذاكرة المعاصرين[61]. ومنهم من اعتبره مع احتلال مصر من طرف فرنسا علامة على قرب ظهور المهدي المنتظر «إذا دخلت النصارى مصر وظهر الوباء بالمغرب وخرجت النصارى بالسواحل ظهر الامام المهدي»[62].

بالاضافة إلى مثل هذه العبارات، هناك من قدم لنا بعض التقديرات عن عدد الضحايا. فعن تطوان، يقول محمد أفيلال «كان يموت في بلدتنا تطوان كل يوم مائة وثلاثون يزيد بعشرة أو ينقص بنحوها»[63]. وعن فاس، يخبرنا الفشتالي بأن الناس كانوا خلال شهر مارس 1799 «يدفنون ما يزيد على ألف في كل يوم»[64]. ويُزايد صاحب «الابتسام»، فيقول : «كان يموت بفاس في كل يوم الألفان ونصف»[65]. ويؤكد محمد الضعيف ارتفاع الوفيات في العاصمة الشمالية بقوله : «وكثر الوباء بفاس البالي وفي تلك النواحي حتى مات من الخلق ما لا يحصي عددهم إلا الله تعالى»[66]. أما عن الحالة في السهول الأطلنتكية، فلنا في رواية محمد الضعيف أحسن مثال عن الفتك الذريع الذي أحدثه فيها الطاعون، حيث يقول

«وقصد السلطان [مولاي سُليمان] دكالة فوجد عاملها قد مات وهو الحاج الهاشمي العروسي الدكالي ومات ولده الطاهر وأخوه محمد بخدمه وعياله ونسائه وبقيت داره خالية»[67].

---

(58) «الابتسام عن دولة ابن هشام»، **مخطوط** خ ح، ز 12420، ص 7.

(59) م. ن.، ص 16.

(60) أورده السوسي (المختار) في **المعسول**، ج 3 ص 250.

(61) **المعسول**، ج 4، ص 22، ج 5، ص 141، ج 17، ص 51 وص 102.

(62) ابن عجيبة (أحمد) «سلك الدر في ذكر القضاء والقدر»، **مخطوط** خ ع، د 2589، ص 15.

(63) أورده داود (محمد) في **تاريخ تطوان**، ج 3، ص 234.

(64) الفشتالي، م. س.، ورقتا 125-126.

(65) **الابتسام**، م. س.، ص 7

(66) الضعيف (محمد)، 1986، ص 315، يخبرنا المؤلف من جهة أخرى، بأن أخاه فقد في هذا الوباء ولده وزوجته (ص 315).

(67) م. ن.، ص 315.

وبالمثل، يبدو من الروايات المغربية أن الخسائر البشرية كانت فادحة جدا في سوس. ذلك ما تعكسه كثرة الاشارات التي أوردها المختار السوسي إلى انقراض أسر بكاملها(68). وهو ما تعكسه أيضا كثرة النوازل التي نشأت بصدد مشكل التركات وفصل الخصومات الناجمة عنها(69).

أخيرا فإن الأركيولوجيا قدمت لنا مساهمة قيمة تؤكد فداحة هذه الخسائر بسوس، ويتعلق الأمر بالتنقيبات التي أجراها باسكون بالمقبرة اليهودية بالبيغ والتي أثبت علي ضوئها هلاك 12 ضحية من يهود الملاح وحده(70). ولاعطاء هذا الرقم كامل أبعاده، ينبغي أن نضيف أنه كان يمثل ثلثي سكان هذا الملاح وما يفوق بثلاثين مرة الوفيات العادية بين سكانه.

* * *

نلاحظ أن الروايات المغربية تتفق مع الروايات الأجنبية في الدلالة على فداحة الخسائر في الأرواح. وكل هذه المعطيات تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الوباء قد أباد ثلث أو نصف عدد سكان المغرب(71). وبالنظر إلى الوفيات كانت مرتفعة بصفة خاصة بين الاناث والفئات الفتية، فإن البلاد عانت لمدة طويلة من مخلفات هذه الكارثة الديمغرافية التي انعكست آثارها في مختلف الميادين.

2 ـ استراحة قصيرة 1801ـ1816
وأزمة غذائية جديدة 17ـ1818

تمتع المغرب خلال المدة المتراوحة بين 1801 و1816 بفترة من الهناء، بحيث إن مصادرنا لا تشير خلال هذه المدة إلى ظهور أي وباء. وقد تزامنت هذه الاستراحة القصيرة مع ظرفية مناسبة مكنت السكان من استئناف حياتهم العادية، وتحقيق نوع من التوازن بين محيطهم الطبيعي وبين إنتاجهم وحاجياتهم.

---

(68) المعسول، ج 11، ص 120.

(69) م. ن.، ج 8، ص 156، وج 3، ص 117 ـ 118.

(70) PASCON (P.) **La maison d'Iligh et l'histoire sociale du Tazerwalt**, SMER, Rabat, 1984, p. 116.

(71) قدر دجاكسون نسبة الخسائر بنصف عدد السكان:
JACKSON, An account, 1809, op. cit., p. 171.

فالوضع الداخلي اتسم بهدوء نسبي تجلت آثاره في استتباب الأمن في مختلف الأقاليم بما فيها النائية عن السلطة المركزية «حتى صار ما بين السوس ودرعة والفائجة مجالا للتجارة وممرا لأبناء السبيل يغدون ويروحون آمنين على أموالهم وأنفسهم»[72]. كما يبدو أن السنوات التي تعاقبت مباشرة بعد الطاعون السابق لم تسجل خصاصا يذكر في التهاطلات، بل يبدو على العكس أنها تميزت بالخصب ووفرة الانتاج. هذا ما يمكن استخلاصه من الملاحظات التي سجلها الرحالة الأجانب الذين ساحوا بالمغرب خلال هذه المدة.

ففي طريقه نحو فاس في ربيع 1801، لاحظ الأنجليزي جيمس كورتس (J. Curtis) أن البادية منزرعة على نحو أفضل مما كان متوقعا بعد التدمير الناجم عن الطاعون. وأبدى نفس الملاحظة عند مروره بالغرب «ان كل ناحية تدل على مستوى زراعي كبير»[73]. بعد أربع سنوات أكد السفير النمساوي بويي (Pouilly) هذه الملاحظات فيما يخص الجهات التي مر بها بين طنجة وعين دالية، في ماي 1805 «لقد اجتزنا سهولا مختلفة تتميز بخصوبتها وكثافة فلاحتها.. وكل البوادي مغطاة بالقطعان من جميع الأصناف»[74]. في السنة نفسها لاحظ علي باي، أثناء مروره بالحياينة، في غشت، أن سفوح التلال كانت تتحول في فصل الصيف إلى مساحات خضراء بما يوجد بها من مزروعات[75]. وفي عام 1806 وصف الانجليزي جوهن بوفا (Jonn Buffa) المناطق التي مر بها بين طنجة ومكناس بأنها مناطق مغطاة بحقول جميلة من الحبوب، وبأن كثيرا من الجبال تزرع إلى أعالي قممها»[76]. من جهته، قدم الضابط الفرنسي بورل (Burel) ملاحظات مماثلة أثناء سفارته إلى المغرب سنة 1808 : «إن المطامير تختزن حاليا ما يكفي لتغطية حاجيات مجموع السكان الغذائية، من ذرة، وقمح، ودخن، وبشنة، وفاصولية، وشعير»، مضيفا أن سعر مد من القمح يقل عن أوقيتين[77] أخيرا، هناك شهادة قنصل انجلترة الذي أشاد سنة 1813 بخصوبة

---

(72) الناصري، **الاستقصا**، 1956، ج 8، 7 ص 107.

(73) AL-MANSUR, 1981, op. cit., t. 1, p. 99.

(74) CAILLE (J.) **Une ambassade autrichienne au Maroc en 1805**, Larose, Paris, 1957, pp. 54-55.

(75) AL-ABBASSI (Ali Bey) **Voyages en Afrique et en Asie**, Paris, 1814, p. 1, p. 316.

(76) AL-MANSUR, 1981, op. cit., t. 1, p. 99.

(77) CAILLE (J.) **La mission du capitaine Burel au Maroc**, Inst. des H.E.M., 1953, pp. 109-110.

البلاد «إن مجموع البلاد عبارة عن سهل مستمر يمكن اعتباره من أحسن المناطق الفلاحية في العالم»[78].

بطبيعة الحال، لا يمكننا أن نعمم انطلاقا من هذه الملاحظات، التي لا تعدو أن تكون انطباعات مشروطة بفترة مرور الرحالة بهذه المنطقة أو تلك، لكنها تشهد مع ذلك على أن البلاد تمتعت بالخصب والرخاء مباشرة بعد الوباء.

هناك قرائن أخرى على هذا الرخاء. فالاخباري محمد الضعيف، الشغوف بتسجيل الجوائح، لا يثير خلال هذه الفترة إلا إلى الصعوبات التي عرفتها بداية موسم 1806-1807 «حيث تأخر نزول المطر واشتد الأمر على الناس، وخرج بعض من الناس لصلاة الاستسقاء وذلك يوم الخميس 28 شوال 1221 (8 يناير 1807)... (و) لم يحرث أحد»[79]. وفيما عدا هذه الظرفية الصعبة، التي وقع تجاوزها بفضل الأمطار التي تهاطلت ابتداء من شهر فبراير، لا يشير المؤلف إلى وقوع أي خصاص، بل نراه بالعكس يتحدث عن الخصب في عدة مناسبات[80].

أضف إلى هذا أن المغرب صدر الحبوب إلى الخارج خلال هذه المدة، وهو أمر لا يحدث عادة إلا إذا تحقق الاكتفاء الذاتي؛ ففي 1801-1802 «أطلق السلطان (مولاي سليمان) بيع الزرع للنصارى بالدار البيضاء وغيرها»[81]، وفي ربيع 1804 صدر المغرب للسويد نحو 6.000 فانكة من القمح[82]، وصدر شحناتُ من الحبوب لتونس وطرابلس للتخفيف من القحط الذي كان يعاني منه هذان البلدان[83]. ويمكن أن نختم هذه الجولة من الاستشهادات بقول الناصري :

«وفي هذه السنين كلها كانت الرعية في غاية الطمأنينة والأمن والخصب والرخاء... وكانت القبائل قد تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات لديها... فصارت القبيلة التي تعطي عشرة آلاف مثقال مضاربة أيام والده (سيدي محمد ابن عبد الله) يستخرج منها على النصاب الشرعي عشرون وثلاثون «ألف مثقال»[84].

* * *

---

(78) AL-MANSUR, 1981, , p. 99.

(79) الضعيف (محمد)، 1986، 340.

(80) م. ن.، ص 350 و365 و388.

(81) م. ن.، ص 321.

(82) م. ن، ص 332.

(83) الاستقصا، ج 8، ص 118.

(84) م. ن.، ج 8، ص 114 و169.

على أن الرخاء لم يستمر طويلا، وسرعان ما مال منحناه إلى الهبوط. كان أول مؤشر لهذا الهبوط قلة الأمطار في الجنوب سنة 1812، ثم تكالب الجراد الذي ألحق أضرارا جسيمة بالحبوب وأدى إلى ارتفاع الأسعار في نهاية 1812 وبداية 1813، فبلغ ثمن القمح 20 أوقية للمد[85]. بيد أن هذه الشدة كانت محدودة في الجنوب، وكان القمح المغربي ما يزال يصدر بطريقة غير مشروعة إلى أوربا، مما دفع مولاي سليمان عام 1813 إلى تجريد «حركة» ضد قبائل الريف لوضع حد لهذه التجارة المحظورة[86]. وابتداء من 1815 بدأت المؤشرات الحقيقية للأزمة الغذائية التي أناخت بكلكلها سنتي 1817-1818.

حسب المعلومات التي لدينا فقد بدأت هذه المحنة بتكالب الجراد. وهكذا فإن وثيقة بتاريخ يونيو 1816 تذكر «إن السنة المنصرمة كانت سيئة للغاية بالنسبة لمختلف المحاصيل لأن الجراد عاث فسادا في أغنى المناطق إلى حد أن مكيالا من الحبوب يبلغ ثمنه عادة 1 فرنك و25 سنتيما بلغ منذ ستة أشهر 6 و7 فرنكات»[87]. ويخبرنا صاحب «الاتحاف الوجيز» بأن سنة 1232/1816-1817 تميزت في سلا بجفاف شديد إلى حد أن صلوات الاستسقاء أقيمت خمس مرات[88]. وفي هذا الجفاف أنشد الشاعر[89] :

اذا اشتد الخناق وضقنا لخالقنا ورازقنا رجعنا
قحطنا أنت معهود كريم تسامحنا اذا نحن أسأنا

لا ندري هل كان هذا الجفاف عاما. إلا أننا نعلم أن السنة تميزت بغزو جديد للجراد الذي وصل إلى المناطق الشمالية محدثا خسائر كبيرة بالمحاصيل[90]. والظاهرة التي تسترعي الانتباه أن المغرب استورد الحبوب في هذه السنة من جبل طارق[91].

---

(85) AL-MANSUR, 1981, t. 1, p. 215.

(86) الضعيف (محمد)، 1986، ص 385.

(87) L. VALENCI (L.) **Le Maghreb avant la prise d'Alger,** Flammarion, 1969, p. 24.

(88) ابن علي الدكالي، **الاتحاف الوجيز**، تحقيق مصطفى بوشعراء، منشورات الخزانة الصبيحية، سلا، 1986، ص 128.

(89) وهو الشاعر زين العابدين المباركي (م. ن).

(90) RILEY **Naufrage du brigantin «Le Commerce» en 1815,** tr. Peltier, Paris 1818, pp. 330, 341 et t. I, p. 451.

(91) Ibid.

أما سنة 1817 فقد بدأت بانطلاقة سيئة، اذ توقفت الأمطار مدة طويلة، امتدت من نوفمبر 1816 إلى بداية مارس 1817[92]. ولئن كانت الآمال معقودة على أمطار الربيع لانقاذ الموسم، فإن البلاد نكبت من جديد بالجراد، الذي عم جميع الجهات وأفسد على الناس زروعهم وثمارهم، وغلت بسببه الأسعار[93].

بيد أن العوامل الطبيعية لم تكن وحدها مسؤولة عن الغلاء، فهناك أيضا قرار السلطان بالسماح لفرنسا باستيراد الحبوب لمواجهة الخصاص الذي كانت تعاني منه. ونعلم أن قنصلها بطنجة (Sourdeau) تمكن بالفعل من انتزاع موافقة المخزن على ألا يتم شحن الحبوب الا ابتداء من يونيو 1817، ثم بعد تجدد المفاوضات، تقرر السماح بتصدير 10.000 قنطار بدون شرط[94]، وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذت لابقاء الصفقة في طي الكتمان، فقد تسرب خبرها محدثا موجة من القلق بين السكان، فهاجم الناس في الرباط المراكب التي قدمت لشحن القمح[95]، بينما خرجوا في فاس ومكناس هاتفين : إن فرنسا تريد حرمان السكان من الخبز[96]، مذكرين السلطان بالوعد الذي قطعه على نفسه سنة 1792 بعدم السماح بتصدير الحبوب والزيوت والصوف للمسيحيين. لتهدئة هذا الغضب الشعبي، اضطر مولاي سليمان في الأخير إلى اصدار أوامره بإيقاف سريع لخروج الحبوب[97].

هذه الظرفية الطارئة انضافت إلى العوامل الطبيعية للدفع بالأسعار في اتجاه تصاعدي. فبلغ القمح 22 أوقية في ربيع 1817[98]. وعلى الرغم من ايقاف التصدير، استمر تصاعد الأسعار، وبلغ القمح في الرباط 26 أوقية[98م].

مع استمرار الجفاف سنة 1818، بلغت الأزمة الغذائية ذروتها ونفقت المواد الاستهلاكية من الأسواق، وبدأت تحركات القرويين بحثا عن لقمة عيش. تخبرنا وثيقة بتاريخ 15 دجنبر بأن نصف السكان كانوا لا يسدون رمقهم إلا

(92) J. CAILLE **Le Consulat de Tanger** ; Paris, 1967, p. 107.

(93) الابتسام، مصدر سبق ذكره.

(94) A.E.P./CCM., t. 25, Tanger, 4 mars 1818.

(95) AL-MANSUR, 1981, op. cit., I, p. 142.

(96) J. CAILLE, 1967, op. cit., p. 107.

(97) Ibid.

(98) AL-MANSOUR, 1981, op. cit., t. I, p. 215.

(98م) AL-MANSOUR, 1981, op. cit., t. I, p. 347.

بالحشائش[99]. في ظل هذا الفقر المدقع عاد الطاعون إلى الظهور ليزيد الطين بلة.

3 ـ عودة الطاعون 1818-1820

أ ـ محاولات الدفاع

يعتبر طاعون 1818-1820 حلقة من سلسلة واسعة بدأت في عدد من البلدان المتوسطية منذ عدة سنوات؛ ففي 1806 ظهر الوباء بمصر، وعاد إليها سنة 1813[100]، في السنة التالية اجتاح مالطه[101]، ثم عاود مصر عام 1816 وبقي بها زهاء أربع سنوات[102]، في نفس السنة انتقلت العدوى إلى عدد من البلدان المتوسطية الأخرى مما شكل خطرا كبيرا على المغرب. ثم ازداد الخطر عندما أصبح جاثما في الحدود. ففي 1817 ظهر بالجزائر مخلفا 40 إلى 60 ضحية في اليوم[103]، وتسلل من الجزائر إلى بونة ووهران، ثم انتشر في كل نواحي الولاية الجزائرية مع قوافل الفارين.

والحقيقة أن المغرب لم يعد أعزل تماما أمام هذا الوباء. فمنذ طاعون 1798-1800 أصبحت «خريطة القناصل» بطنجة تولي مزيدا من الاهتمام بالوقاية الصحية في المراسي. وهكذا، وفي الوقت الذي كانت أوربا مشغولة عن البلاد بحروب الثورة الفرنسية، كان قناصلها بطنجة قادرين على اتخاذ سلسلة من التدابير الوقائية تنص على طرد المراكب الموبوءة أو إخضاع ركابها، بمن فيهم المغاربة، لحجر صحي في أحد أبراج المدينة.

ومع أن هذه التدابير لم تكن تخلو من ثغرات، فإنها لم تكن عديمة الجدوى. ويرى الطبيب الفرنسي رينو أن المغرب نجا من الحمى الصفراء سنة 1810 بفضل الحظر المفروض على جبل طارق وملقا، حيث تفشى الوباء. كما

---

(99) A.E.P./CCM., t. 26, Tanger 15.2.1818.

(100) D. SEGUR "Rapport adressé à M. le Ministre de l'Agriculture et du Comm. sur les modifications à apporter aux règlements sanitaires", **Ann. Mari.**, Paris, 1839, t. 70, v. 2, p. 746.

(101) Ibid.

(102) Ibid.

(103) R.C.S./t. 1, n° 85.

يذكر أن البلاد نجت من الطاعون سنة 1804 بفضل طرد مركب قادم من الشرق وعلى متنه شخص موبوء(104).

ويفيدنا سجل «المجلس الصحي الدولي بالمغرب»(105) بأن «خونطة القناصل» عقدت اجتماعا طارئا عند وصول الأخبار بظهور الطاعون بالجزائر عام 1817، قررت فيه ما يلي

ـ فرض حجر صحي لمدة أربعة أيام على جميع المراكب القادمة من بلاد المغرب الكبير ومن المشرق الاسلامي، ولمدة يومين على المراكب القادمة من الموانىء الأوربية فيما وراء جبل طارق.

ـ توجيه هذا القرار لعامل طنجة وأمين جماركها وكذلك لنواب القناصل بمراسي تطوان والعرائش والرباط والصويرة.

ـ توجيه رسالة إلى السلطان لالتماس موافقته على القرار والعمل على تنفيذه، مع تذكيره بأن والده سيدي محمد بن عبد الله سبق له، في ظروف مماثلة، أن أقام حزاما عسكريا بين مملكته والولاية الجزائرية.

ـ تعيين طبيب فرنسي مفتشا صحيا بمرسى طنجة لتعزيز المراقبة الصحية بها.

على الرغم من أن وثائقنا لا تفيدنا بشيء حول موقف مولاي سليمان من هذا القرار، فإننا لا نشك في أنه استجاب له لأنه عودنا على ذلك في مناسبات مختلفة، كما تشهد على ذلك وثائق المجلس الصحي نفسها؛ ولأنه صرح مرارا بجهل المغرب في شؤون الحجر الصحي معترفا للقناصل بخبرتهم في هذا الميدان. وقد جاء في إحدى رسائله وهو يخاطبهم

«فأنتم تعرفون كيف تتعاملون مع أهل الوباء في بياعتكم (كذا) ومشترياتكم وتجعلون الدراهم في الخل وتتحفظون كل التحفظ والمسلمون لا يعرفون ذلك، ولا يتحفظون مثل تحفظكم منه وذلك فيه ضرر على المسلمين وعلى قنصوات النصارى الذين بطنجة»(106).

---

(104) RAYNAUD, 1902, op. cit., p. 82.

(105) R.C.S./I, n° 856.

(106) رسالة من مولاي سليمان إلى القنصل الانجليزي ماطرا (Matra). 11 رجب 22/1219 ماي 1804، أوردها AL-MANSUR, 1981, op. cit, t. 2, p. 31.

غير أن ما يجب التوكيد عليه أن السلطان كان يتحفظ أحيانا من قرارات «الخونطة» الصحية تخوفا مما قد ينجم عنها من أضرار تجارية. ذلك ما تفصح عنه رسالة محمد بن عبد السلام السلاوي إلى القناصل والتي يقول بها

«إن التحفظ مما فيه الضرر هو جاري بيننا ومبينا (كذا) بشرع نبينا صلى الله عليه وسلم، لكن هذه الحسرة الشديدة الصادرة منكم هي خلاف مراد سيدنا ويورث منها الضرر للتجار»[107].

كان هذا التحفظ يزداد بصفة خاصة عندما يتعلق الأمر بالحجاج المغاربة العائدين إلى بلادهم من الديار المقدسة. هذا التردد هو الذي نسف في الأخير قرار «الخونطة»، المشار إليه سابقا، وفتح الباب على مصاريعها أمام تسلل الطاعون إلى البلاد.

ب ـ قضية نزول الحجاج بطنجة 1818

هل كان بإمكان القناصل في بداية القرن التاسع عشر أن يجرؤوا على فرض الحجر الصحي حتى على الأمراء من أبناء السلطان ؟ وإذا فعلوا، هل كان بإمكان هذا الأخير الموافقة على هذا الاجراء ؟ طرح هذا المشكل في ربيع 1818 عند عودة الأميرين المولى عمر والمولى علي من الديار المقدسة. وفيما يلي الوقائع.

في 22 ماي 1818، توقف بجبل طارق المركب الانجليزي «الطاج» قادما من الاسكندرية، ومقلا على متنه الأميرين المذكورين بالاضافة إلى ستين حاجا مغربيا من بينهم سبع عشرة امرأة. في نفس اليوم، التحق بطنجة قائدان مغربيان على متن زورق تابع للمركب المذكور بمهمة التعرف على الموقف الذي قد تتخذه الهيئة القنصلية ساعة قدومه.

يفيدنا سجل المجلس الصحي في هذا الصدد بأن الهيئة القنصلية تعرضت لضغوط قوية من طرف أمين الجمارك وعامل طنجة إلى حد أنها اقتنعت في الأخير بأن التدابير التي قد تتخذها بهذه المناسبة ستقابل حتما بالرفض، باعتبار أنها ستكون موجهة ضد ولدي السلطان، فقررت بالتالي عدم الوقوف بكيفية

---

(107) رسالة من محمد بن عبد السلام السلاوي إلى الهيئة القنصلية بطنجة، 22 رمضان 7/1229 شتنبر 1814 (و م م).

صريحة ضد المركب، وخلعت عن عاتقها كل مسؤولية(108). وفيما يرويه القنصل الفرنسي سوردو (Sourdeau) فإن القناصل اضطروا إلى اتخاذ هذا الموقف «بناء على الأوامر الضمنية التي تلقاها الأمناء من صاحب الجلالة السلطان»(109).

بناء على ذلك، تمتع زورق القائدين المغربيين بحرية الدخول، ثم عاد إلى جبل طارق بعد توقف بطنجة دام ثلاث ساعات. والذي يفهم من الروايات الأجنبية أن هذا الزورق ترك في طنجة الجرثومة الأولى للطاعون. ويذكر كرابر (Graberg) أن يهوديا حمل أمتعة القائدين من المرسى إلى داخل المدينة، كان أول من أصيب بالوباء، وعن طريقه انتقلت العدوى إلى احدى أخواته في 23 ماي، لتموت بعد يومين وعليها الأعراض المميزة للطاعون(110).

مهما يكن، فإن ركاب «الطاج» تمتعوا فورا بحرية الدخول إلى طنجة بمجرد وصولهم في 23 ماي، وهذه الموجة الأولى من الحجاج هي التي تحدثت عنها المصادر المغربة، وحملتها بكل وضوح مسؤولية ادخال الطاعون إلى المدينة. يقول الزياني

«وفي هذه السنة (1233) بلغنا أن ولدي أمير المومنين مولاي علي ومولاي عمر قدما من الحج ونزلا بمرسى طنجة ووجه لهما والدهما مركبا من مراكب الانجليز للاسكندرية حملهما وأصحابهما والحجاج والتجار منها ولما نزلوا بطنجة كان ذلك سبب دخول الوباء للمغرب»(111).

ويضيف الناصري «ولما نزلوا بطنجة حدث الوباء بالمغرب فقال الناس إن ذلك بسببهم»(112).

والواقع ان نزول حجاج «الطاج» لم يحدث في حينه ما من شأنه أن يثير الانتباه من الناحية الصحية، لأن الوفيات الأولى بقيت منعزلة، وبعضها نسب إلى حالة انتحار بالسم(113). وإلى بداية الشهر التالي، كانت «خونطة القناصل» ما نزال تبذل المساعي لابعاد شبح الوباء، جاهلة أنه داهم عقر الدار.

(108) R.C.S. / n° 916.

(109) A.E.P. / CCM., t. 26, Tanger 25.5.1818.

(110) HEMSÖ (Graberg di) **Observations authentiques sur la peste du Levant...**, Florence, 1841, p. 40.

(111) «الروضة السليمانية» م.س.، ص 191.

(112) الناصري «الاستقصا»، ج 8، ص 133.

(113) HEMSÖ (G. di), 1841, op. cit., p. 41.

نعرف بالفعل أنها بذلت محاولتين الأولى في 20 ماي. في هذا التاريخ، عقدت جلسة طارئة على إثر وصول الأخبار بقرب وصول موجة جديدة من الحجاج مكونة من 430 حاجا، على متن المركب الانجليزي «أفون» (Avon). فقررت بالمناسبة توجيه رسالة إلى مولاي سليمان لالتماس موافقته على اخضاع هؤلاء الحجاج للحجر الصحي عند قدومهم(114). أما المحاولة الثانية، فكانت في فاتح يونيو، عندما وصل إلى طنجة مركب مغربي صغير برئاسة عبد الكريم ابن الطالب، وعلى متنه ثلاثون ملاحا. تقول إحدى رسائل سوردو : «انطلق هذا المركب من الجزائر منذ 32 يوما، ولم يتوقف بميناء ماعون سوى ثلاثة أيام. وعندما سئل ابن الطالب عن سبب قدومه لطنجة دون اكتمال المدة القانونية للحجر الصحي الذي تنص عليه القوانين في ميناء ماعون، تعلل بارتفاع تكاليف هذا الحجر»، وتضيف الرواية أن أمين الجمارك كتب إلى السلطان في شأن هذا المركب الذي قدم مباشرة من مكان موبوء(115).

في 2 يونيو، أخبر سوردو بأن السلطان وجه إلى القناصل رسالة غير موقعة بطابعه، جوابا على رسالتهم المؤرخة في 15 رجب 1233، أبدى فيها موافقه التامة على طلبهم في شأن حجاج المركب الانجليزي «أفون»، بل وحدد بنفسه مدة الحجر الصحي الذي يتعين على هؤلاء الحجاج قضاءه، واختار «طنجة البالية» مكانا لعزلهم(116). وقد عثرنا بالفعل، ضمن وثائق الخارجية الفرنسية، على ترجمة لهذه الرسالة، إلا أنها ركيكة وغامضة في بعض فقراتها(117). بيد أن جانب الاشكال يكمن في أن القنصل الفرنسي يشير في الوقت نفسه إلى وصول رسالة سلطانية مضادة للأولى، موقعة هذه المرة، وجهها مولاي سليمان إلى أمين جمارك طنجة، الحاج العمارتي، يأمره فيها بالسماح للحجاج بالدخول فور وصولهم، والسماح لهم أيضا بادخال أمتعتهم وسلعهم بدون حجر صحي(118).

تبعا لهذه الأوامر المتناقضة، احتدم نزاع حاد، ساعة وصول المركب الانجليزي «أفون»، بين أمين الجمارك ورئيس الهيئة القنصلية (قنصل

(114) R.C.S. / I, n° 918.

(115) A.E.P. / CCM., t. 26, Tanger 1-6-1818.

(116) A.E.P. CCM., t. 26, Tanger 2-6-1818.

(117) A.E.P. / CCM. 26 "Traduction de la lettre de S.M. l'Empereur du Maroc aux Consuls relativement aux mesures sanitaires"

(118) الرسالة المذكورة في الهامش 115.

الشهر)[119]، فبينما أصر الأول على وجوب السماح للحجاج بالدخول، أصر الثاني على وجوب إخضاعهم للحجر الصحي مستظهرا كل منهما برسالة السلطان. وحيث إن الرسالة الموجهة إلى الحاج العمارتي كانت تحمل الطابع السلطاني، بعكس الأمر بالنسبة للرسالة الموجودة بيد «قنصل الشهر»، فإن الكلمة الأخيرة كانت للسلطة المحلية، وتمتع الحجاج بالدخول بسلعهم[120].

لتبديد سحب الغموض العالقة بهذه القضية، سنقوم الآن باستنطاق وثيقتين مغربيتين:

الأولى لا تتضمن سوى إشارة عابرة، لكنها واضحة، كما أنها ذات وزن كبير باعتبارها صادرة عن أمين الجمارك نفسه، الحاج العمارتي. تقول الرسالة : «وأما ابن الطالب هو بطنجة ولاكن لم ينزل ومركب الحجاج قدم ونزلوا (كذا) الحجاج في ساعتهم لأن أمر سيدنا يتركون في الحين وكل من عنده سلعة لا تعشر»[121].

أما الوثيقة الثانية، فهي أكثر تفصيلا، وجهها الحاج أحمد أحرضان إلى التاجر محمد باجه، وقد جاء فيها

«واعلم سيدي أن القناصل كتبوا لسيدنا نصره الله في اليوم الذي قدم شيخ الركب وأمرهم سيدنا نصره الله بأن قدم هذا المركب يجعل له أربعين يوما من الگزنطينة (الحجر الصحي) في موضع يقال لها (كذا) طنجة البالية، والكتاب الذي قدم عليهم فيه هذا الأمر لم يجعل له سيدنا نصره الله تاريخا، وقدمت علينا يوم الثلاثة والعشرين الذي ذكرنا في الشهر، ويوم الخمسة وعشرين يوما من الشهر الذي ذكرنا لك قدم رجل من أصحاب سيدنا ومعه اثنين من الخيل، صحب معه كتاب (كذا) للأمين العمرتي وفيه أمر للمركب متاع الحجاج بوصوله اليه ينزله من غير الكرنطينة وجميع ما عندهم مسرح من غير عشور... ويوم الستة والعشرين عند نص (كذا) النهار قدم المركب علينا وعمل في سفره أربعة وأربعين يوما وفيه أربعة مائة رجل، وفي الساعة التي وصل نزل الحجاج... وأما الحاج عبد الكريم بن الطالب قدم من الجزائر في مركب الذي عند ابن سليمان... ومعه البحرية متاع الفركاطة، وبعض أولاد بنيه وهو مثقف

(119) كان كل قنصل من الدول الممثلة في المغرب يشغل منصب الرئيس لمدة ثلاثين يوما، فيعرف بقنصل الشهر.

(120) الرسالة المذكورة في الهامش 115.

(121) رسالة من محمد بوبكر العمارتي إلى التاجر محمد باجه، 3 شعبان 8/1233 يونيو 1818 (خ ح).

في المرصة، منعه السيد محمد العمرتي من الهبوط وكتب عليه الأمين والنصارى لسيدنا نصره الله والنظر لسيدنا»[122].

باستثناء بعض الاختلاف في التفاصيل، نلاحظ أن الوثيقتين تؤكدان حرفيا الرواية الأجنبية كما قدمناها أعلاه ؛ وبالخصوص فإن الوثيقة الثانية تشير من جديد، وبكل وضوح، إلى الأوامر السلطانية المتناقضة بصدد الحجاج. ومهما بدا لنا هذا الموقف غريبا، فهو يؤكد ما سبق أن قلناه عن تردد الجانب المغربي في فرض قيود على الحجاج، ومن الممكن أن نعتبر كذلك جانبا آخر، وهو أن مسألة العدوى كانت لا تصادف قبولا من بعض المسؤولين، اعتقادا منهم بأن الوقاية فرار من القدر وتشبه بالنصارى.

ج - مراحل الوباء بطنجة

بعد نزول الحجاج بطنجة بثلاثة أيام، توفيت منهم امرأة بأعراض الطاعون، وانتقلت العدوى عن طريقها إلى داخل البيت الذي تقطنه ثم إلى مجموع الحي المجاور «من دار لأخرى»[123]. وفي 18 يونيو أخبر «قنصل الشهر» زملاءه رسميا بوجود الطاعون بالمدينة، وذلك على إثر وفاة خمسة أطفال في دار واحدة[124]. وفي 21 يونيو توفي عشرة أشخاص كانت حالتهم الصحية جيدة قبل وفاتهم بثلاثة أيام[125]. في الوقت نفسه، كانت إصابات الوباء المستجلب منذ 22 ماي تتصاعد بين السكان اليهود «دون أن يجرؤوا على إرجاع أسبابها إلى الطاعون». ومنذ 27 يونيو كان جميع القناصل والأوربيين الذين لم يتمكنوا من الفرار قد قبعوا داخل دورهم، وامتنعوا عن تلقي أي شيء يأتيهم إلا بعد غمسه في الخل[126].

ويمكن اعتمادا على تقديرات كرابر[127]، وكذلك على بعض المعطيات الأخرى، أن نتتبع الأدوار الرئيسية التي مر بها الوباء بطنجة على الشكل التالي

---

(122) رسالة من الحاج أحمد أحرضان إلى باجه، 1 شعبان 1818.6.6/1233 (خ ح).

(123) HEMSÖ (G. di.), 1841, p. 41.

(124) A.E.P. / CCM., t. 26, Tanger 18-6-1818.

(125) T 6 1 / Roll 3, Tanger 18-6-1818.

(126) COCHELET (Ch.) **Naufrage du Brick français la Sophie**, Paris, 1821, t. 2, p. 198.

(127) G. di HEMSÖ, op. cit., p. 42, sq.

ـ **دور الاكتساح** يبدأ يوم 25 ماي، وهو التاريخ الذي سقط فيه أول ضحية، وينتهي في بداية شتنبر. في هذا الدور كان الوباء خفيفا، ويفتك بالخصوص بضعاف البنية من أطفال وشيوخ ونساء مع ذلك، فإن الوفيات التي لم تكن تتجاوز في الأوقات العادية شخصين في كل ثلاثة أسابيع، أخذت في التزايد تدريجيا لتصل إلى 3 و4 في اليوم خلال شهر يوليوز، وإلى 5 و6 خلال غشت، بحيث بلغ عدد الضحايا، من بداية ظهور الوباء إلى نهاية غشت، حوالي 312 ضحية.

ـ **دور الاحتداد** يمتد من شتنبر إلى نوفمبر 1818. اتخذ الوباء وقتئذ شكله الكاسح. ففي الشهر الأول، بلغت الوفيات 267 ضحية، وارتفعت في أكتوبر إلى 479، لتبلغ ذروتها في نوفمبر، حيث سجل هلاك 216 ضحية في الأيام العشرة الأولى من الشهر. وقد وردت في وثيقة مغربية مؤرخة في 9 محرم 8/1234 نوفمبر 1818، إشارة مقتضبة تدل على هذا الاحتداد «وليوم كثرت الموت فلبد ونحن متوكلين على الله»[128]. على أن ما عبرت عنه هذه الوثيقة باقتضاب، نجده مفصلا في رسالة القنصل الفرنسي سوردو بتاريخ 3 نوفمبر 1818 : «يخلف الطاعون يوميا مزيدا من الضحايا، فبدلا من أن تخف وطأته، نراه يتخذ طابعا يمكن مقارنته بالصاعقة، بحيث إن المرء يخر صريعا بمجرد إصابته، فلم تعد الوفيات تقدر بـ 10 أو 12، وإنما بـ 25 و30 في اليوم»[129]. ويضيف سوردو أن المقبرة الاسلامية لم تعد تكفي لسد الحاجيات، مما تطلب تخصيص بقعة أخرى لدفن الموتى.

وهكذا فقد كان شهر نوفمبر نقطة الذروة في احتداد الطاعون وارتفع فيه عدد الضحايا إلى 576 ضحية. وبذلك تكون حصيلة هذا الدور الثاني 1.322 ضحية.

ـ **دور الانحسار** : في هذا الدور، مال منحنى الوفيات إلى الهبوط. فإذا كان عدد الموتى قد بلغ 200 ضحية خلال الأسبوعين الأولين من دجنبر، فإنه أخذ في التقلص ابتداء من هذا التاريخ، وفي 24 منه، لم تسجل سوى وفاتين، ثم وفاة واحدة في يوم 28، وبذلك لم يتجاوز عدد الضحايا في هذا الشهر 328 ثم استمر الهبوط في يناير (95 ضحية). وتؤكد وثيقة مغربية هذا الانحسار ،وهي بتاريخ 16 يناير 1819، فتقول باللسان العامي «المرض نزل... والضرب

(128) رسالة من أحمد اللبادي إلى محمد باجه، 9 محرم 8/1234 نونبر 1818 (خ ح).
(129) A.E.P. / CCM., t. 26, Tanger 3-11-1818.

نزل كل يوم 4 إلى 6 إلى 7»(130). من جهته، عبر سوردو عن تقلص الوباء في هذا الشهر بقوله «إن عدد الضحايا في تقلص مستمر يوما عن يوم، أما المصابون فيتماثلون للشفاء بعد مباشرتهم ببعض الاسعافات»(131).

ـ **دور الانقطاع** خلال شهر مارس 1819 أحصي فقط 42 ضحية، وفي أبريل هبط الرقم إلى 17، ولم يعد الطاعون متفشيا إلا بين اليهود. ويستشف من وثيقة مغربية بتاريخ 17 أبريل أن الوباء كان قد انقطع تماما من طنجة في هذا التاريخ. تقول الوثيقة «ويكون في علمك أن البلاد هانية معافية من الألم ولا يبقى (كذا) إلا فيما سواها»(132). وبالفعل، لم تسجل خلال الأسبوعين الأولين من ماي سوى 3 وفيات، بل ومر أسبوع بكامله دون تسجيل أي وفاة.

ـ **الوباء الثاني أو الذيل** : في 22 ماي 1819، وهو اليوم الذي صادف ذكرى مرور سنة كاملة على ظهر الطاعون بطنجة، حدث هجوم جديد نسبه كرابر إلى العدوى التي جرت انطلاقا من تطوان مع حوائج المطعونين التي يقول أنها كانت تباع في سوق المدينة. بقي هذا الذيل متفشيا إلى منتصف فصل الصيف، وأدى إلى هلاك 31 ضحية بين 22 ماي و30 يونيو، و10 ضحايا خلال يوليوز، وضحيتين في العقد الأول من غشت

* * *

تلك هي المراحل الرئيسية التي مر بها الوباء بطنجة، اعتمدنا فيها أساسا على المعطيات التي قدمها كرابر، وقد كان الرجل شاهد عيان، كما أنه اعتمد طريقة تعد من أنجع الوسائل في ذلك العصر لتقدير عدد الضحايا، وهي تعداد الجنائز، التي كانت تمر حسبما يقول امام نافذة الدار التي يقطنها.

بناء على ما تقدم، يتضح أن الحصيلة الكلية للخسائر بلغت في ظرف 14 شهرا 2.207 ضحية على ساكنة تقدر بين 9.000 و11.000 نسمة(133)، مما يمثل زهاء خمس مجموع السكان، وهي نسبة تقل عن تلك التي قدمها لنا البعض(134)، وتقل كذلك عن تلك التي سجلت في مدينة الجزائر عام 1817

(130) رسالة من أحمد اللبادي الى أحمد باجه، 19 ربيع الاول 16/1234 يناير 1819 (خ ح).

(131) A.E.P. / CCM., t. 26, Tanger

(132) رسالة من محمد بن أبي بكر العمارتي الى محمد بن عمر باجه، 21 جمادى الثانية 17/1234 أبريل 1819 (خ ج).

(133) حول مختلف التقديرات عن عدد سكان طنجة في بداية القرن 19، انظر

J.L. MIEGE **Le Maroc et l'Europe (1830-1894)** ; t. 2, Paris, 1961, pp. 172-173.

(134) Al-Moghreb Al-Aksa, n° du 5-11-1898.

(انظر الجدول رقم 1). إلا أنها تبقى مع ذلك مرتفعة، وهي تعطينا فكرة عما جرى في باقي المدن المغربية الأخرى، خاصة الأكثر اكتظاظا، مثل فاس، ومكناس، ومراكش.

الجدول رقم 1

مقارنة بين طاعون طنجة (1818) وطاعون الجزائر (1817)[135]

السكان	طنجة (1818)			الجزائر (1817)		
	العدد	الموتى		العدد	الموتى	
		العدد	النسبة		العدد	النسبة
المسلمون	6.860	1.970	28	41.000	13.518	33
اليهود	1.525	257	16	7.000	1.771	27
المسيحيون	115	7	6	2.000	540	27
المجموع	8.500	2.214	26	50.000	15.829	31

(135) أقمنا هذا الجدول اعتمادا على ANDRZEJ DZIUBI'NSKI : **Miedzy mieczem Cloden I Dzuma Maroko W latach (1727-1830)** Wroclaw-Warszawa-kraków- Grańsk Zaklad Narodowy Imienia Ossolińckich... Akademil Nank, 1977, p. 151.

الجدول رقم 2

أدوار الطاعون بطنجة (1818-1819)

الدور الأول : الاجتيـاح

من 25 ماي إلى 30 يونيو 1818	31	
يوليوز	113	312 ضحية
غشت	168	

الدور الثاني : المـد

شتنبر		267	
أكتوبر		479	
نوفمبر العقد الأول منه	216		1322 ضحية
العقد الثاني	189	576	
العقد الثالث	171		

الدور الثالث : الجــزر

دجنبر	328	
يناير 1819	96	468 ضحية
فبراير	44	

الدور الرابع الانقطـــاع

مارس	42	
أبريل	17	62 ضحية
من ماي إلى 13 منه	3	

الوباء الثاني : الذيــل

من 22 ماي 1819 إلى 30 يونيو	31	
يوليوز	10	43 ضحية
من 1 غشت إلى 11 منه	2	
بالاضافة إلى 23 يهوديا و 4 مسيحيين ماتوا بأمراض أخرى		27
		2234 ضحية

د ـ انتشار الوباء

لا تمدنا المصادر المغربية المتداولة إلا بإشارات مقتضبة وعامة إلى انتشار الوباء في باقي جهات البلاد. فالزياني، وهو معاصر له، يكتفي بالقول : «انتشر (الوباء) في تلك السواحل (طنجة) ومنها شاع في الحواضر والبوادي إلى أن بلغ فاس ومكناسة واستمر بقية العام إلى تمامه»[136]. ويردد أكنسوس الرواية نفسها تقريبا «ثم شاع في المغرب وخصوصا في تلك السواحل ثم في جميع الحواضر والبوادي إلى آخر أربعة وثلاثين ومائتين»[137].

ومع أن المصادر الأجنبية أكثر تفصيلا، فإن ما تقدمه من معلومات يظل غير كاف ليسمح لنا بملاحقة الوباء فضلا عن تحديد حصيلته الديموغرافية، مع العلم أن هذه المعلومات لا تهم، عموما، سوى بعض المدن الرئيسية، ومقابل ذلك نجد صمتا يكاد يكون تاما عن البوادي والمناطق الجبلية.

ـ الأقاليم الشمالية

إذا نظرنا إلى خريطة الوباء، على ضوء هذه المعلومات الشحيحة، نجده قد ظل محصورا في الأقاليم الشمالية إلى منتصف 1819. الظاهر أن فاسا ومكناس أصيبتا في وقت مبكر. قد يكون هذا راجعا إلى الحجاج الذين عادوا إليهما. ويمكن أن نلاحظ بالفعل أن الطاعون ظهر في فاس منذ منتصف يونيو 1818، أي بعد حوالي ثلاثة أسابيع من ظهوره بطنجة، وهي المدة التي يستغرقها عادة السفر بين المدينتين[138]. في هذا التاريخ يخبرنا سوردو بأن الوفيات بلغت فيها يوميا 50 ضحية، ويضيف أن خمسة أشخاص ماتوا في أحد فنادق المدينة بعد أن ظهرت عليهم دماميل كثيرة[139]. وكما هي العادة فقد خفّ الطاعون كثيرا في فصل الصيف إلى درجة أن رسالة مؤرخة في 4 غشت تفيد بأن فاسا ومكناس تتمتعان بصحة جيدة[140]، إلا أنه سرعان ما اشتد من جديد مع حلول فصل الخريف، فبلغت به الوفيات خلال أكتوبر 150 ضحية يوميا في مكناس وفاس ومع نهاية يناير 1819، خف من جديد، حيث لم تعد تسجل سوى 10 إلى 20 وفاة في اليوم، بدلا من 100 و190. إلا أنه اشتد مرة أخرى في مارس ـ

(136) **الروضة السليمانية** م. س.، ص 191.

(137) «الجيش العرمرم»، **مخطوط** خ ع، د 965، ص 180 (ب).

(138) RENAUD (H.P.J.) "La peste de 1818"; **Hespéris**, 1923, p. 21.

(139) A.E.P. / CCM. Tanger 22-6-1818 (t. 26).

(140) RENAUD ; 1923, p. 21.

أبريل. وحسب قنصل انجلترة، فإن الشغل الشاغل للسكان في فاس أصبح هو دفن الموتى من طلوع الشمس إلى غروبها، بعد أن ارتفعت الوفيات في المدينة إلى 400 ضحية في اليوم(141). إلا أن سوردو يقدم رقما أقل بالنسبة لشهر أبريل وهو 200 إلى 300 ضحية(142)، وهذا الرقم الأخير يبدو أكثر احتمالا طالما أن صاحب «الابتسام» يؤكده حرفيا بقوله «كان يخرج في كل يوم من فاس الثلاثمائة فما دون»(143).

ويظهر أن الطاعون في المدن الشمالية الأخرى قد مر بنفس الأدوار. هذا على الأقل ما يشهد عليه مثال تطوان.

ترجع الاشارة الأولى إلى ظهور الوباء في هذه المدينة إلى شهر شتنبر 1819، وقد وردت على شكل احتجاج تقدمت به إدارة الصحة بمرسيليا ضد النائب القنصلي الانجليزي بها، وذلك بعد تسليمه شهادة صحية جيدة لقائد إحدى السفن الأوربية، وهي شهادة تتنافى، كما ورد في رسالة الاحتجاج، مع تفشي الوباء بالمدينة(144). مهما يكن، فقد ظل الوباء خفيفا بتطوان في بدايته، ولم يشتد إلا في ربيع 1819، حيث ارتفعت به الوفيات خلال مارس إلى 60 ضحية، ثم زادت خلال الشهر التالي إلى 70(145). وفي النصف الثاني من نفس الشهر، قدرت الوفيات بها بـ 1.062، أي بمعدل 70 في اليوم(146). ومرة أخرى نلاحظ أن المصادر المغربية تتفق مع الروايات الأجنبية. كما يتضح من رواية محمد داود «وقفت على رسالة كتبها الحاج عبد الرحمن من مدينة تطوان إلى قريبه التاجر الحاج عبد الكريم ابن الطالب بتاريخ 25 جمادى الأخيرة عام 1234 (21 أبريل 1819)، وكان ابن الطالب اذ ذاك بفاس، وقد أخبره فيها بأن الموتى يوميا بالوباء في تطوان كان قد بلغ ثمانين شخصا، واليوم أخذ في النقصان، فبلغ ستين فأقل»(147).

فيما عدا هذه المدن، تشير مصادرنا باقتضاب إلى الحالة الصحية في ثلاث مدن شمالية أخرى القصر الكبير والرباط، اللتين بلغت فيهما الوفيات

---

(141) AL-MANSOUR, 1981, op. cit., t. I, p. 349.
(142) A.E.P. / CCM., t. 26, Tanger 4 mai 1819.
(143) «الابتسام ص. 7.
(144) RENAUD ; 1923, p. 20.
(145) م. ن.، ص 21.
(146) الرسالة المحال إليها في الهامش 142.
(147) داود (محمد) **تاريخ تطوان**، ج 3، ص 149.

خلال ربيع 1819، 40 وحتى 50 ضحية في اليوم، ثم العرائش التي بلغ عدد موتاها خلال أبريل 566 ضحية أي بمعدل 20 ضحية في اليوم[148].

نلاحظ مما تقدم أن الطاعون بلغ ذروته في الأقاليم الشمالية خلال ربيع 1819 في الوقت التي كانتِ فيه الأقاليم الجنوبية سالمة. إلا أن منتصف السنة شكل نقطة انعطاف، فبينما استراح الشمال من ويلاته، جاء دور الجنوب ليؤدي ضريبته.

ـ الأقاليم الجنوبية والوسطى

ليست لدينا معلومات كافية عن الحالة في هذه الأقاليم، لكن يفهم من القطع المبعثرة التي وصلتنا أنها قاست كثيرا من ويلاته. نعلم أن الوباء ضرب إقليم تادلا، إذ يخبرنا الناصري بوفاة الشيخ العربي الشرقاوي في أبي الجعد «بهذا الوباء»[149]، وبالطبع فإن هذا الشيخ لم يكن الضحية الوحيدة. نعلم كذلك أن الصويرة أصيبت في صيف 1819، وسوس في شتاء نفس السنة. أما عن ضربات الطاعون في هذا الاقليم الأخير، فقد حدثنا عنها كوشولي (Cochelet)، بطل غرق السفينة الفرنسية «لاصوفيا». فأثناء مروره بقرى أيت باعمران في اكتوبر، شاهد التدمير الذي أحدثه الطاعون في هذه القرى، ووصفه بقوله :

«ما لبثنا أن شاهدنا يمنة ويسرة قرى مشابهة تقريبا لقرى وادي نون ولو أنها أقل منها أهمية، بيد أن كثيرا منها كانت مهجورة من طرف سكانها... وقد أخبرت بأن الطاعون فتك بها في وقت قريب، وأن العدد القليل ممن نجا من العدوى نزح عنها إلى جهات أخرى»[150].

وعلى ما يبدو فإن الأقاليم الجنوبية تعرضت لهجوم جديد في الأشهر الأولى من سنة 1820. ففي 8 يناير كتب قنصل الولايات المتحدة (J. Simpton) مخبرا بأن الطاعون يخلف في الصويرة 5 ضحايا في اليوم، و50 إلى 60 ضحية في مراكش[151]. ونقرأ في مراسلة من جبل طارق بتاريخ 27 مارس : «تتمتع طنجة بصحة جيدة، وكذا الأمر بالنسبة لنواحيها. أما مراكش، فإن عدد الموتى الذي كان بلغ 900 ضحية في اليوم، هبط حاليا إلى 300، بينما ارتفع

(148) الرسالة المذكورة في الهامش 142 و146.
(149) الناصري **الاستقصا**، ج 8، ص 133.
(150) COCHELET 1921, t. 2, p. 78.
(151) T 6 1 / Roll, 3, Tanger 8.1.1820.

في الصويرة إلى 15 و20 في اليوم. كما أن الطاعون يحدث حاليا أفدح الخسائر في إقليمي حاحا والشياظمة، وقد ظهر حتى في سان كروا (أكدير)[152].

– المناطق الجبلية

على الرغم من أن النصوص التي لدينا لا تساعدنا للأسف على معرفة الحالة في المناطق الجبلية، إلا أنها مع ذلك تعطينا إشارات متفرقة تدل على أن هذه المناطق قد أصيبت بدورها، وإن بدرجة أخف مما حدث في السهول. فكودار (Godard) يؤكد أن الطاعون تفشى في أقاصي جبال الأطلس[153]. كما أن مؤلفي كتاب «تاريخ المغرب» يتحدثون عن فتك الوباء بالجبليين، ويذكرون أن أسرة جبلية ورثت سنة 1820 جميع أراضي قبيلتها لأنها الوحيدة التي بقيت سالمة[154]. وهناك في الأخير إشارة عابرة في إحدى الدراسات المونوغرافية تفيد بأن الطاعون تفشى في اينولتان في سفوح جبال الأطلس الكبير[155].

وهكذا يمكن القول إن الوباء عم جميع المغرب، وانتشر من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب حتى تخوم الصحراء.

* * *

لا نستطيع تقديم أي رقم عن ضحايا هذا الطاعون، والتقدير الوحيد الذي لدينا مجرد فرضية صاغها كرابر الذي اعتبر أن عدد المصابين بالطاعون لم يتجاوز 5/3 مجموع السكان، ومات منهم الربع[156]. على أن ثمة حقيقة مؤكدة، هي أن الخسائر العامة في الأرواح قلت كثيرا عن تلك التي سجلت خلال الوباء السابق. فالأرقام التي قدمتها المراسلات الأجنبية عن عدد الضحايا في المدن الرئيسية لا تتجاوز نسبها ربع أو ثلث الأرقام التي قدمتها عن ضحايا الطاعون السابق. ومن خلال التقرير الذي وضعه الطبيب الاسباني سولا (Sola) عن الحالة الصحية بطنجة، يتبين لنا أن كثيرا من الناس المصابين كانوا يحتملون المرض ولا يضطرون إلى ملازمة الفراش[157]. من جهة أخرى، قام صاحب «الابتسام» بمقارنة بين الطاعونين، واستنتج أن هذا الثاني «كان فيه الموت

(152) RENAUD ; 1923, p. 23.
(153) GODARD ; op. cit. 2, p. 585.
(154) BRIGNON et autres ; 1967, p. 260.
(155) التوفيق (أحمد) **اينولتان**، 1983، ص 197.
(156) أورده RENAUD ; 1923, p. 27.
(157) A.E.P / CCM., t. 26 Rapport du Dr Sola.

ولاكن ليس كالمرة الأولى»[158]. وصرح في موضع آخر «وهذا الثاني كان أخف من الذي قبله»[159].

من الصعب تعليل هذا التفاوت. لكننا نعلم أن الأوبئة اذا اجتاحت أرضا بكرا، فإنها تفتك بها فتكا ذريعا، كما حدث عند الطاعون الأسود في منتصف القرن الرابع عشر، وكما حدث أيضا عند طاعون 1798ـ1800 الذي يفصله عن سابقه (طاعون منتصف القرن XVIII) حوالي 50 سنة.

مع ذلك، لم يكن من شأن هذه الأزمة الجديدة إلا أن تخلف آثارا سلبية على الصعيد الديموغرافي، سيما وأنها جاءت في وقت كان المغرب ما يزال يجتر عواقب الأزمة السابقة التي لا تفصلها عنها سوى ثماني عشرة سنة. هذا بالاضافة إلى أنه (المغرب) سرعان ما نكب بفاجعة أخرى وبفارق زمني يسير.

4 ـ مجاعة 1825ـ1826

في بداية عهد مولاي عبد الرحمن بن هشام (1822ـ1859)، ولمّا يمض على الطاعون السابق سوى زهاء أربع سنوات، تعرضت البلاد لأزمة طاحنة أخرى ظلت عالقة بالأذهان مدة طويلة، ولم تنحسر ذكراها إلا بعد أزمة 1850، التي كانت أشد منها وقعا. والأزمة في طبيعتها أزمة غذائية تجسد المصادر آليتها بما تقدمه من إشارات إلى ضياع المحصول وغلاء الأسعار.

بدأت المعالم الأولى لهذه الشدة مع محصول عام 1824 الذي جاء دون المتوسط المعتاد[160]. ثم جاء فصل الخريف بموجة قاسية من البرودة وأمطار طوفانية «فوق ما تعتاده العقول». تسببت هذه الحالة في خسائر جسيمة بمنطقة فاس، تحدث عنها ابن عبد الرحمن صاحب «التذكرة» بقوله «فاحتملت أوديتها من السيل ما لا يعلمه الا الله وانحدرت على وادي فاس عند افتتاح العدوتين، عدوة الأندلس وغيرها، ووصلها بعد العشاء على حين غفلة من أهلها فأغرق ما بها من الديار والأسواق... ومات من الخلائق العدد الكثير»[161]. بعد هذه الفاجعة انقطعت الأمطار وتواصل الجفاف مما قضى تماما على

(158) **الابتسام**، ص 16ـ17.
(159) م. ن.، ص 16.
(160) AT / 180, Tanger 9.6.1825.
(161) ابن عبد الرحمن (الفاسي) **تذكرة المحسنين** خ ع، ك 270، ص 357.

المحاصيل[162]. ومنذ بداية يونيو 1825 اشتعلت الاسعار وكتب حينئذ القنصل الفرنسي سوردو (Sourdeau) يقول «إن ثمن القمح في المغرب أغلى منه في فرنسا»[163]. ثم زادت الأسعار اشتعالا حتى خُيِّل للمعاصرين أنه لن يسبق لها نظير : «وفي هذه السنة (1241هـ) كان بالمغرب كله الغلاء المفرط الذي لم يُحدّث أحد بمثله»[164].

ومع أن هذا الغلاء كان عاما، فقد اشتدت وطأته بالخصوص في المناطق الداخلية. ذلك ما تعكسه آلية الأسعار في كل من طنجة وفاس ؛ في المدينة الأولى ارتفع ثمن القمح من نصف مثقال للمد إلى مثقالين، ثم إلى مثقالين ونصف، أي حوالي 45 فانكة للهيكتولتر[165]. أما في المدينة الثانية فقد بلغ ثمنه 7 ثم 9 مثاقيل.

أسعار بعض المواد في فاس[166]

القمح	7 مثاقيل للمد	الذرة	5 مثاقيل للمد
القمح	9 مثاقيل للمد	الدقيق	3 أواق للرطل
الشعير	4 مثاقيل للمد	الزيت	6 أواق للرطل

* * *

في محاولة للتخفيف من معاناة الناس، وكذلك لامتصاص اضطرابات الجوع، قام مولاي عبد الرحمن بن هشام بتوزيع الاسعافات على المنكوبين وأذن للتجار بجلب الأقوات من الخارج، محددا لهم الأرباح شفقة على الضعفاء[167]. وقد امتدت عملية الاستيراد على نطاق واسع، من فرنسا، وانجلترة، وسردينيا، واسبانيا، وحتى من مصر وتونس. ومن يونيو إلى 9 نوفمبر 1825 تم استيراد حوالي 172.000 فانكة (فانكة 56 لترا) من القمح عن طريق ميناء طنجة لا غير، موزعة كما يلي

---

(162) ابن سودة **اتحاف المطالع**، حوادث 1240 هـ.

(163) الرسالة المذكورة في الهامش 160.

(164) **تذكرة المحسنين**، ص 357.

(165) MIEGE ; Le Maroc et l'Europe..., t. 2, p. 39.

(166) **تذكرة المحسنين**، ص 358، وكذلك : VAJDA ; 1951, p. 100.

(167) انظر رسالة مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى أمناء سلا والرباط، بتاريخ 6 ذي القعدة 22/1240 يونيو 1825 ابن زيدان **اتحاف أعلام الناس...**، ج 5، ص 124-125.

يونيو	9.000	فانكة قمحا
يوليوز	28.500	فانكة قمحا
غشت	34.300	فانكة قمحا
شتنبر	16.800	فانكة قمحا
بداية أكتوبر	3.400	فانكة قمحا
من 5 أكتوبر إلى 9 نوفمبر	80.000	فانكة قمحا

في نفس المدة استوردت موانيء أخرى (تطوان، العرائش، الرباط) حوالي 174.000 فانكة، مما يعطي في المجموع 346.000 فانكة. وكان ثمن هذا القمح يؤدى نقدا وبالريال الاسباني، وبسعر ريالين لكل فانكة. وبذلك تكون قيمة ما استورده المغرب خلال هذه المدة المذكورة 692.000 ريال، أي ما يعادل حوالي 3.440.000 فرنك(168).

بيد أن هذه الأرقام لا تشمل سوى حجم وقيمة المستوردات في بداية الأزمة، وإلا فإن المجموع ارتفع إلى 250.000 قنطار بقيمة 7.000.000 فرنك(169).

مما لاشك فيه أن هذه العملية الاستيرادية خففت بدرجة محسوسة من حدة الغلاء والجوع في الموانيء. يتضح هذا التحسن من هبوط ثمن القمح في هذه الموانيء إلى مثقال واحد(170). إلا أن الصعوبة تكمن في تحريك الأقوات المستوردة، بعد هلاك عدد كبير من الدواب، وهي الضحية الأولى للجفاف، هذا بالاضافة إلى أخطار المسالك التي كانت ملغومة بقطاع الطرق(171). ويصور لنا صاحب «الابتسام» أزمة النقل هاته بقوله «وكان الناس يأخذون الدراهم ويذهبون للمراسي ويتسوقون ويحملونه على الابل فيذبحهم العرب في الطرق فلا ينجو منهم إلا القليل من شدة ما عليه الناس من الجوع...»(172). في ظل هذه الظروف بلغت تكلفة جلب القمح إلى فاس 40 أوقية للمد، ومع ذلك لم يكن يوجد من ينقله(173). ولما كان القرويون يعيشون على الحافة الدنيا لما يعتبر الحد الأدنى لضروريات الحياة، ولا تسمح لهم الظروف باختزان شيء، فإن أزمة الخبز هاته جرّت معها القحط الأسود وأرغمتهم على الهجرة طلبا للغوث. منذ

---

(168) AT / 180 Tanger,5.10.1825 et 9.11.1825.

(169) MIEGE ; Le Maroc et l'Europe..., 2, p. 41.

(170) **تذكرة المحسنين**، م. س.، ص 358.

(171) من مولاي عبد الرحمن إلى الأمين الحاج الطالب ابن جلول بتاريخ 22 صفر 6/1242 أكتوبر 1825، حول نهب قافلة لأهل تطوان (خ ح 4/1، وكذلك داود **تاريخ تطوان**، المجلد 8، ص 106).

(172) **الابتسام**، م. س.، ص 70.

(173) **تذكرة المحسنين**، م. س.، ص 358.

ماي شاهد القنصل الفرنسي سوردو، أثناء مرافقته السفارة الفرنسية إلى فاس[174]. أسرا بكاملها تائهة في السبل بعد أن غادرت أراضيها بحثا عن لقمة عيش[175]. وكانت طنجة في بداية اكتوبر مكتظة بالآفاقيين وجماعات المتضوعين تجوب الحقول بنواحيها بحثا عن الجذور[176]. بعد الجذور، وحصاد ماتبقى من النبات، استعمل الجائعون وسائل أخرى. فيذكر الرحالة بروك(Brook) أنهم أكلوا في طنجة جميع كلاب المدينة[177]. وهو ما يؤكده صاحب «الابتسام» بالنسبة لما وقع في جهات أخرى «وفي هذه المسغبة أكل الناس الكلاب والقطط والجيف»[178].

بيد أن كل هذه الوسائل لم تحل دون تهالك الكثيرين جوعا. ففي بداية أكتوبر كان يموت في طنجة عشرة أشخاص الى خمسة عشر شخصا بالاضافة إلى هؤلاء «الأشقياء الذين يوجدون صرعى وسط الحقول والبساتين المجاورة للمدينة»[179]. كذلك الأمر في السواحل الأخرى، حيث يخبرنا بروك بأنه شاهد بين المهدية وسلا ركاما من هياكل الجثث البشرية وقد نهشتها الطيور الكاسرة[180]. أما في المناطق الداخلية، فكانت الحالة أدهى. في فاس، بلغ عدد الموتى، وخلال عدة أشهر، 150 و250 ضحية في اليوم[181] بينما بلغت الخسائر في الملاح وحده 1.800 ضحية[182].

إلى الجوع ومآسيه انضاف وباء خطير قضى على عدد آخر من الناس. وقد عزا سوردو سبب ظهوره في طنجة إلى الجثث العديدة المتراكمة في الحفر عند أبواب المدينة، وكذلك إلى تهافت الجياع على الاقتيات بجثث الخيول، والحمير، وبالبغال، والأبقار، التي تركت ملقاة على قارعة الطريق[183].

---

(174) انطلقت هذه السفارة من طنجة في 9 ماي 1825، ووصلت الى فاس في 19 منه. انظر CHARLES-ROUX et CAILLE (J.) **Missions diplomatiques françaises à Fès** ; Paris, 1955, p. 32 sq.

(175) الرسالة المذكورة في الهامشين 160 و163.

(176) AT / 180, Tanger, 4.10.1825.

(177) BOIX ; 1949, op. cit., p. 9.

(178) **الابتسام**، م. س.، ص 70.

(179) AT / 180, Tanger 26.2.1826.

(180) BOIX ; 1949, op. cit., p. 9.

(181) AT / 180, Tanger 2.2.1826.

(182) VAJDA ; 1951, op. cit, p. 100.

(183) AT / 180, Tanger, 1.3.1826.

استمرت الحالة على هذا النحو خلال جزء كبير من عام 1826، ولم تبدأ في التحسن التدريجي إلا مع المحصول الجديد، حيث عادت المصادر المغربية تتحدث، بتعبيرها المعتاد، عن عودة الخصب والرخاء «فرفع الله عن الناس الشدة ورخصت الأسعار، ونزلت الأمطار وأخصب الأقطار»(184).

* * *

إن ما قدمناه عن هذه المجاعة لا يعدو أن يكون عرضا بسيطا، لكنه مع ذلك يرينا أنها مجاعة طاحنة، ولا يسع المرء إلا أن يخلص إلى أنها أحدثت نزيفا ديموغرافيا جديدا. ذلك على الأقل ما عبرت عنه المصادر المغربية ببعض العبارات ذات الدلالة. فصاحب «الابتسام» يذكر أنه «مات جل الضعفاء وأشرف الناس على الهلاك»(185). بينما يقول صاحب «التذكرة» «ومات بالجوع ما لا يعلمه إلا الله من القبائل وأهل المدن»(186). أما الناصري، فقد قال عن هذه المجاعة «أهلك الناس وكاد يأتي عليهم»(187).

على أن ما أكسب هذه المجاعة خصوصيتها في تاريخ البلاد خلال تلك الفترة، هو مساهمتها في تمهيد الأجواء أمام الانفتاح على التجارة الأوروبية. فقد كانت الضربة التي أنزلتها بمالية المخزن كبيرة بسبب ما تطلبته من استيراد الحبوب من الخارج بتكاليف باهظة، مما فرض عليه البحث عن موارد جديدة لإعادة التوازن إلى ماليته. ولم يكن بالامكان تغطية العجز بالزيادة في الضرائب. فثقلها كان شديد الوطأة على الفلاحين مع ظروف المجاعة وتناقص القدرة الشرائية للسكان. فكان الحل الذي ارتآه هو إحياء سنّة الجهاد البحري التي كان مولاي سليمان قد أبطلها. إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل أمام ردود فعل أوربا. فلملء الخزينة اذن كان لابد من الاعتماد على وسائل أخرى. ومن ثم قرر السلطان، بمجرد عودة الخصب ووفرة الانتاج، تصدير الحبوب المتجمعة من الأعشار. ولأجل هذا الغرض فتح موانيء الجديدة والدار البيضاء والعرائش. فكانت بذلك الثغرة التي استغلتها بسرعة الدول الأوروبية المهتمة بالسوق المغربية لإقامة مراكزها التجارية الأولى فيها. بذلك يمكن القول إن المجاعة، التي أرغمت في المرحلة الأولى على الاستيراد، ثم في المرحلة الثانية على التصدير، ساعدت على انفتاح البلاد أمام التسرب الأوربي الذي كان، كما نعرف، وبالا على مستقبلها.

(184) **الابتسام**، م. س.، ص 70.

(185) م. ن.

(186) **تذكرة المحسنين**، ص 358.

(187) **الاستقصا**، ج 9، ص 13.

5 ـ النتائـج العامـة

بالاضافة إلى النتائج الديموغرافية التي تعرضنا لها سابقا، تميزت هذه الكوارث الثلاث، التي تعاقبت دوريا في المدة المتراوحة بين 1798 و1826، بنتائج متعددة أخرى، اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية.

أ ـ النتائـج الاقتصادية

ـ تدهور الحياة الحرفية والتجارية

تقاسمت المجاعة والطاعون الدور الخطير في تدهور الحرف والتجارة. فمن الآثار التي أفرزاها على الصعيد الأول، قلة عدد الصناع والعمال. وهي حقيقة سجلها لنا أعضاء السفارة البريطانية إلى فاس، حيث إنهم لاحظوا كثرة الخسائر في صفوف حرفيي المدينة، وذكر القنصل الانجليزي ماطرا (Matra) أن 70 شخصا من الوراقين المزخرفين لقوا حتفهم من جراء الطاعون، إلى حد أن الرسالة التي وجهها مولاي سليمان إلى ملك انجلترة زخرفت من طرف مبتدىء، لأنه الوحيد الذي ظل بمنجاة[188] من جهته. سجل صاحب «الابتسام» هذه الحقيقة بقوله «وكسدت الصنائع والحرف وضاق المعاش»[189]. بيد أن ضربات الطاعون لم تجر على وتيرة واحدة، وإنما اختلفت باختلاف الانتماء الحرفي؛ فبعض الحرف، مثل حرفة الحدادين، بقيت سالمة بسبب ضجيجها الذي يبعد الفيران، في حين أن حرفا أخرى، كحرفة الخبازين، كانت أكثر تضررا.

على الصعيد التجاري، حدث انكماش كبير في المعاملات، لقلة السلع وقلة من ينقلها أو يشتريها. وكانت التجارة الوحيدة التي بقيت رائجة في زمن المجاعة، بل وعرفت رواجا كبيرا، هي تجارة الحبوب والخبز. يقول صاحب «الابتسام» «وجل الناس لا يتكسبون إلا في القمح والدقيق والخبز، وتعطلت التجارة في كل شيء إلا في هذه الأشياء»[190]. كما أن جميع المعاملات أصيبت بالشلل في زمن الطاعون، لأن الوباء أرغم الناس على الفرار أو على ملازمة دورهم مما أدى إلى تعطيل الأسواق. وقد وردت في رسالة من شيخ الطريقة الدرقاوية إلى أحد أتباعه إشارة تدل بالفعل على أن الناس كانوا يتقاعدون في زمن

---

(188) AL-MANSUR, 1981, op. cit., t. 1, p. 104.

(189) الابتسام، ص 70.

(190) المصدر نفسه.

الوباء عن الخروج لقضاء أوطارهم. تقول الرسالة، وقد كتبت إبان طاعون 1800-1798 «وما تأخرنا في المجيء إلى تجساس إلى الآن لأجل المرض الذي بالدنيا والموت والفتن»(191).

ولدينا وثيقتان يرجع تاريخهما إلى وباء 1820-1818، تشيران بوضوح إلى حالة الكساد العام. تقول الأولى «ونس فشد عظيم (الناس في شدة عظيمة) رزقهم يفسد بين يديهم ولا قدرة لهم عليه الله يفرج اعلي وعلى جميع المسلمين»(192). وتقول الثانية «وكان المرض أقو (اشتد) هنا.. وليوم لا تسأل عن البيع والشر (الشراء) الذي عنده القليل وحل (أي وقع في ورطة) والذي عنده الكثر كذلك، ربي وحده رضيت بحكمه»(193).

إذا أضفنا إلى هذا النزيف الديموغرافي الذي تسببت فيه المجاعة والطاعون، فمن السهل إدراك السبب الذي من أجله كانت أهم المدن المغربية في القرن 18 وبداية القرن التالي خالية تقريبا من السكان، مخربة، منهارة. ذلك ما ينطبق على مدينة مراكش التي زارها علي باي سنة 1804، فلاحظ «أن الطاعون أخلاها إلى حد أنها لم تعد سوى ظل لماضيها المشرق»(194). وهي نفس الملاحظة التي قدمها في نفس الفترة القنصل الأنجليزي ماطرا عن مكناس(195). أما فاس، عاصمة البلاد وقلبها النابض، فكانت قد استرجعت بعض حيويتها في عهد مولاي سليمان، إلا أن تكرر الكوارث أضر بهذا الانبعاث، وألحق خسائر فادحة بأطرها الصناعية والسياسية والثقافية. في عام 1827/1243، زارها محمد التامراوي بعد عودته من الحج، فقال عنها : «وهي مدينة علم... وموطن العلماء والمدرسين. إلا أنها الآن قليلة العلم والدرس عما رأيتها عليه من قبل»(196).

- تدهور الفلاحة في السهول

يتفق الباحثون على أن مختلف الطواعين، التي تعاقبت على المغرب منذ العصر الوسيط، كانت أشد وقعا في السهول منها في الجبال. ويعلل نوان (Noin) هذا النسق اللامتكافىء بأن السهول تكون عادة مقرا للتجمعات الحضرية

---

(191) أوردها داود **تاريخ تطوان**، المجلد 6، ص 311.

(192) رسالة من محمد اللبادي إلى التاجر باجه، 29 شوال 1/1233 شتنبر 1818 (خ ح).

(193) رسالة من أحمد بن محمد إلى التاجر باجه، 19 ربيع الأول 1819-1-16/1234 (خ ح).

(194) EL-ABBASSI, 1814, op. cit., v. 1, p. 264.

(195) AL-MANSOUR, 1981, op. cit., t. I, p. 58-59.

(196) رحلة محمد التامراوي، أوردها المختار السوسي في **المعسول**، ج 8 ص 212.

والقروية، ومقرا للمواسم والأسواق، ونقاط انطلاق للمحاور التجارية الرئيسية، مما يجعلها تشكل أرضية خصبة لتنشيط حركية العدوى(196م).

بالفعل، تدل كل القرائن التي لدينا على أن الطاعونين اللذين مرا بنا أحدثا أكبر الخسائر في السهول، ولو أن الجبال لم تبق بمنجى منهما. وفي مجتمع زراعي تقليدي، يعتمد أساسا على الطاقة البشرية والحيوانية، وعلى الأداة العتيقة. كان من الطبيعي أن تنعكس غزوتا الموت هاتان على الحياة الفلاحية بحصدهما أرواح العديد من الفلاحين وما ينتج عن ذلك عادة من قلة اليد العاملة الزراعية، وإهمال الأرض التي لا تجد من يزرعها أو يعتني بها. جسد الفشتالي هذه الحقيقة متحدثا عن طاعون 1799 «وفيه كان الغيث الكبير وجاءت صابة لكن... لا يقدر الأحياء على خدمتها لقلتهم اليوم»(197).

وهكذا، وبامتصاصها الفلاحين من الأرض، وإتلافها التجهيزات، أدت هذه الكوارث الطبيعية المتكررة إلى تخريب شروط أي تطور أو تراكم في الخبرات والمهارات، وحكمت بالتالي على الهياكل الانتاجية بالثبات والركود.

أضف إلى ذلك أنها ساعدت على التفشي الواسع للحياة الرعوية على حساب الحياة الزراعية. فقد كانت المناطق الخصبة التي أخلتها من الفلاحين تشكل فراغات بشرية كبيرة تفتح باب الهجرة أمام العناصر الطارئة التي تنطلق عادة من الأطراف الصحراوية التي كانت تلعب دور خزان بشري لتعويض الضمور الديموغرافي في السهول وحتى في الجبال.

نعرف أن هذه الحركة نشطت منذ منتصف القرن الرابع عشر من جراء الطاعون الأسود. كما نعرف، بفضل دراسة روزنبرجي والتريكي، أنها تواصلت في القرنين السادس عشر والسابع عشر. من ذلك ان قبيلة الرحامنة، التي كانت تعيش في الصحراء الغربية في بداية القرن السادس عشر، دخلت إلى سوس بعد مجاعة 1521ـ1522، ثم واصلت زحفها إلى أن انتهى بها المطاف في منطقة مراكش(198). من جهة أخرى، فقد ظهرت قبيلة كروان وأيت أومالو للمرة الأولى بعد الانهيار الديموغرافي الذي حدث بتادلا بسبب مجاعة 1661، بينما وجدنا أيت حديدو، وهي قبيلة صحراوية أخرى، تنتقل إلى وادي ملوية(199).

(196م) NOIN, 1970, op. cit., t. 1, p. 268

(197) الفشتالي، ورقتا 125ـ126.

(198) ROSENBERGER et TRIKI, 1975, p. 70.

(199) AL-MANSOUR, 1981, op. cit., t. I, p. 53.

تواصلت هذه التحركات أيضا خلال القرن الثامن عشر، بل وتلقت دفعة قوية أولا، بسبب النزيف الديموغرافي الكبير الذي شهده هذا القرن ؛ وثانيا، بسبب اختلال عناصر النظام الايكولوجي في الأطراف الصحراوية. فظاهرة التصحر التي عرفتها هذه الأطراف، أوجدت بيئة هشة زادت من قساوة العيش بها، وقد أظهر مرتان (Martin)، وبالفعل، أن حجم الماء انخفض بها من 200.000 قدم عام 1708، إلى أقل من 20.000 قدم عام 1776[200].

بدون القيام هنا بدراسة وافية حول الموضوع، وهي دراسة تستحيل في الظروف الراهنة لمصادرنا، نشير إلى أن الهجرة حدثت عبر محورين : أحدهما أفقي، انطلق من المناطق الجبلية في اتجاه السهول الأطلنتكية[201] ؛ والآخر عمودي، انطلق من الصحراء الغربية في اتجاه السهول الغربية، بل ويبدو أنه همّ حتى المناطق الجبلية. نتوفر حول هذه الهجرة الصحراوية على بعض الأمثلة ذات الدلالة. الشهادة الأولى يقدمها دجاكسون، وتفيد بأن قبائل عربية كبيرة هاجرت من مواطنها الأصلية بالصحراء، بعد طاعون 1798-1800، وحطت رحالها في الأراضي الخضراء المتاخمة لوادي درعة أو الواقعة في سوس، تلك الأراضي التي أقفرت من سكانها[202]. الشهادة الثانية، وهي تؤكد الأولى، أوردها اخباري من سوس، وتتعلق بهجرة جماعة من عرب بلال (ادار بلال) التي انتجعت بأنعامها ومواشيها في حدود 1806/1220، وواصلت سيرها إلى أن وصلت إلى ظاهر تاسريرت بسوس[203]. أما الشهادة الثالثة، فقد أوردها مؤلفو «تاريخ المغرب»، وهي تتحدث عن هجرة قبائل جنوبية أخرى في أعقاب الطاعون الثاني (1818-1800)، وعن استيطانها وادي نفيس[204].

عندما استقرت هذه القبائل الرعوية في السهول، لم تجد أي حافز يدعوها إلى تغيير نمط عيشها أمام الامتدادات التي تحيط بها. وبالتالي، فقد تركت في هذه السهول بصمات عاداتها ومفاهيمها القانونية وطريقتها الاقتصادية.

وهكذا فإن الأرض التي تتمتع بأفضل الامكانيات، والتي تتطلب أدنى مستوى من تكاليف التنمية، كانت هي الأرض التي لا تزرع، أو لا تزرع إلا على نطاق محدود. وقد أثارت هذه الظاهرة استغراب الأوربيين، إلا أنهم بدلا من

---

(200) MARTIN A.G.P. **Quatre siècles d'histoire marocaine...**, Leroux, Paris, 1923, pp. 259-262.

(201) BRIGNON et autres, op. cit., pp. 259-262.

(202) JACKSON ; An account..., op. cit., p. 175.

(203) أورده **المعسول**، ج 3 ص 250.

(204) BRIGNON et autres, op. cit., p. 204.

تعليلها على ضوء عوامل التدمير، من مجاعات وأوبئة، فسروها بالعامل الاجتماعي/الاقتصادي (غارات الرحل على المستقرين)، أو بافتقار الفلاحين، فيما يقولون، إلى أن حماية قانونية، مما حرمهم من أي حافز اقتصادي.

* * *

قلنا آنفا إن الهجرة همت أيضا المناطق الجبلية. ذلك أن طاعوني نهاية القرن وبدايته ضربا هذه المناطق هي الأخرى، وإن بدرجة أخف، ومن ثم حدثت بعض الفراغات البشرية التي ملئت بالأسر الطارئة القادمة من الجنوب. وعلى ما يبدو فقد تعرضت لهذه الهجرة حتى أكثر الجهات الجبلية عزلة، كما هو الشأن بالنسبة لوادي أغبار في القسم الأعلى من جبال الأطلس الكبير. لنترك روبر مونطاني يحدثنا عن ذلك

«قد نتوقع أن نجد في هذه الأودية العالية النائية عن المحاور الرئيسية، سكانا أصلاء لا تشوبهم شائبة من هذه التمازجات التي تلاحظ بكيفية متواترة في قبائل سهول المغرب. بيد أن الأمر بخلاف ذلك. فإذا كان السكان الحاليون يبدون لنا ثابتين، لا تجذبهم في الأوقات العادية حياة السهول الأكثر يسرا، فإن هذه المناطق كانت تتعرض غداة الحروب والأوبئة لتجددات بشرية كبيرة. ففي اسيف ميسور، الذي يعد أكثر الأقسام عزلة من أغبار، لا توجد أي أسرة من مجموع السبع عشرة التي تشكل سكان هذه المجموعة القروية، تدعي انتماءها إلى أجداد أصلاء. فتسع منها تنحدر من منطقة امزميز، وثمانٍ من مقاطعات جد متنوعة من سوس. والظاهر أن توافد هؤلاء الغرباء مرتبط هنا بالتدمير الذي أحدثته في الوادي أوبئة الطاعون في بداية القرن التاسع عشر»(205)

ب ـ النتائج الاجتماعية

أدى الطاعون إلى إحداث بعض التغيرات في أحوال الناس وفي توزيع الثروات عن طريق خلق الفرص أمام الأحياء للاثراء السريع بالارث أو التسلط على ممتلكات الضحايا الذين انقطع عقبهم. يذكر، مثلا، المختار السوسي أن أحد أعيان سوس، محمد بن عبد المومن الدياني، استحوذ على كثير من متاع أخواله المجتاحين في الوباء(206). ويضيف في موضع آخر أن ثلاث فرق على أربع من أسرة سوسية مشهورة بالعلم والتدريس في الأطلس الصغير، هي الأسر

(205) MONTAGNE (R.) "L'Aghbar et les Hautes vallées du Grand Atlas" ; **Hespéris**, 1927, t. VII, pp. 1-32.

(206) السوسي (المختار) **المعسول**، ج 3، ص 117-118.

الايديليكية، انقرضت بسبب هذا الوباء، مما مكن الفرقة المتبقية من احتكار إرثها المادي والمعنوي بعدما كانت لا تلعب أي دور في إدارة زاوية ايديكل ومدرستها، كما أنها أصبحت تستفيد من إنعامات المخزن أي من الامتيازات المعنوية والاعفاء الضريبي(207).

يرى البعض، استنادا إلى مثل هذه الأمثلة، أن أوبئة الطاعون كانت قادرة على إحداث تطور في البنى الاجتماعية بل وعلى وضع قواعد لنمو الفيودالية(208). والواقع أن هذا الرأي ينطوي على كثير من الغلو

ـ **أولا** ، ينبغي التذكير بهذه الحقيقة، وهي أن العلائق الاجتماعية في مغرب ما قبل الرأسمالية لم تكن تتمفصل على ملكية الأرض، لأن هذه الأرض بدون انسان غير نافعة على الرغم من كثرتها. أما من كان يأتي في مركز العلائق الاجتماعية، فهو الانسان نظرا لندرته.

ـ **ثانيا**، إذا كان النظام الفيودالي يتميز بطابع التبعية والاستغلال، فإننا نلاحظ أن الطاعون كان يحد من هذه التبعية وهذا الاستغلال، لأن اليد العاملة تصبح نادرة بعد كل أزمة وبائية، مما يؤدي إلى ارتفاع أجورها. ولأن الفقراء تتاح لهم الفرصة بدورهم للاستحواذ على الثروات التي مات أصحابها ولم يبق لها وارث. بحيث يمكن القول إن الوباء، بدلا من تعميق الهوة بين الفقراء والأغنياء، كان يعمل بالعكس على تهديم الحواجز الاجتماعية ومد جسور متحركة متداخلة، تساعد على ايجاد نوع من التوازن الاجتماعي. ذلك ما لاحظه دجاكسون بعد طاعون نهاية القرن، وعبر عنه بقوله

«لقد حدث تغيير عام في توزيع الثروات وفي أحوال الناس، إذ أن أناسا كانوا مجرد فقراء امتلكوا ثروات هائلة وخيولا ليسوا متمرنين على امتطاء صهواتها، كما ارتفعت تكاليف اليد العاملة واضطر الأغنياء إلى قضاء أوطارهم بالاعتماد على النفس، وسادت بين مختلف الفئات الاجتماعية مساواة لم يسبق لها نظير»(209).

ـ **ثالثا**، كثيرا ما تؤدي الطواعين إلى ظهور حركة عمودية صاعدة أو هابطة، فكل حركة نحو الأعلى تقابلها حركة نحو الأسفل. فإذا كانت هذه الأسرة أو تلك من الأسر الكبيرة، تزداد ثراء بعد حدوث وباء، وتصبح مالكة لأراض

---

(207) أورده ROSENBERGER et TRIKI ; 1974, p. 62.

(208) BRIGNON et autres ; 1967, op. cit., p. 263.

(209) JACKSON An account..., op. cit., p. 175.

شاسعة، فإن هذا لم يكن يتم بشكل مستديم ومنتظم. كانت هذه الأراضي تتعرض للانكماش أو التفتت أو الضياع بعد دورة وبائية جديدة، مما كان يقضي على كل تطور دائم على المدى البعيد. وقد أبرز بعض الباحثين هذه الحركة غير المتطورة بكل وضوح. يقول عياش بصدد الريف

«إن الملكية كانت تنتقل في الغالب من يد إلى أخرى، خاصة في زمن الأوبئة، عندما تضرب الموت شعوائيا. فنجد حينئذ هاته الأسرة أو تلك من الأسر المالكة تصبح هي نفسها تابعة لأسرة أفقر منها بعد أن أبقى عليها الوباء. لكن دون أن تؤدي هذه الحركية إلى إحداث أي تغيير في الحالة العامة. فالحركة تسير، لا في خط مستقيم، وإنما على شكل دورة»(210).

إلى نفس هذا المعنى يذهب أحمد التوفيق، الذي درس مجتمع اينولتان بالمنحدر الشمالي من الأطلس الكبير، حيث يقول

«إن الاحتجانات للأرض في زمن المجاعة لم تكن تؤدي إلى تراكمات قارة للثروة، لأن الأسرة الكبيرة كانت معرضة للانقراض بسبب الأوبئة أو للتفتت عندما كانت تبلغ توسعها الأقصى. وبتفككها أو انقراضها، يتعرض ما جمعته إلى الانتقال إلى الغير»(211).

- **رابعا**، كان احتجان الثروات العقارية يتعارض والأسس المادية التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي والاقتصادي للقبيلة. فهذا التنظيم يقوم بوجه خاص على نظام القرابة، ويمتاز بتقنية بسيطة وتراكم ضئيل في رأس المال، وحينما يبلغ هذا التراكم نسبة هامة يصبح لدى المجتمع عدد من التشريعات وظيفتها الأساسية الحؤول دون التراكم وتأمين دوران الثروات. وهكذا فقد كانت «المجاعة» تتدخل لإرجاع الأمور إلى نصابها. يحدثنا جاك برك بأن «أمغار» بقبيلة سكساوة تمكن بالفعل من جمع أراض كثيرة في نهاية القرن. لكن عندما أودى به الطاعون، تدخلت «الجماعة» على الرغم من أولاده، وصادرت أملاكه. ويعلق برك على ذلك بقوله «إن مثل هذا التوسع يجد حدوده في الأخلاق العقارية وآليات القانون المحلي، وبالتالي لا يمكنه أن يذهب بعيدا»(212).

---

(210) AYACHE (G.) **Les origines de la guerre du Rif** ; SMER, Rabat, 1981, p. 100.

(211) التوفيق (أحمد) «اينولتان»، 1983، ص 79.

(212) BERQUE (J.) **Structures sociales du Haut-Atlas** ; PUF, Paris, 1965, p. 91.

ج ـ النتائـج السياسيـة

ـ الطاعون وتوطيد الحكم المركزي 1808ـ1802

في سنوات 1802ـ1808، أي مباشرة بعد طاعون 1798ـ1800، تمكن مولاي سليمان من توطيد حكمه المركزي، وفرض الأمن وجباية الضرائب بكيفية منتظمة تقريبا. بحيث ظهر خلال هذه المدة وكأنه يبسط حكمه على مملكة ممهدة، يسودها النظام والاستقرار، ولا يوجد ما ينبيء بشيء من شأنه تعكير صفوها أو الرمي بها في أتون الفوضى والاضطرابات. والواقع أن هذه السنوات العشر في حاجة إلى أن تدرس بعناية وأن تعلل أحداثها تعليلا مقبولا لنتعرف على العوامل الحقيقية التي أفضت إلى هذه النتائج السارة، فلحد الآن لم يدخل الدارسون في الاعتبار سوى جولات السلطان البوليسية، وهو تعليل غير كاف لإقناعنا[213]. على العكس من ذلك، فإن الأمور قد تصبح أكثر وضوحا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الدور الذي لعبه الطاعون في هذا المجال. والحال أن الاخباريين المغاربة والملاحظين الأجانب لذلك العصر أبرزوا هذا الدور بكل وضوح. فالمؤرخ الزياني اعتبر الطاعون «خيرا» لأنه أراح السلطان من إخوته الثائرين عليه[214]. أما أكنسوس، فكان أكثر وضوحا عندما قال : «وانقطع الوباء في المغرب... وظهر في الدنيا سرور وفاضت الخيرات بمختلف الأموات وذلك مصداق البركة في بغية الجوائح، وكذلك لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين. ولما مات الظلمة والعتاة ومشاهب البلاد، وشياطين القبائل، تمهدت المملكة لمولانا سليمان، فلم يعد له منازع ولا معارض»[215]. أخيرا، فقد لاحظ القنصل الأنجليزي ماطرا (Matra) «أن مولاي سليمان يحكم قبضته الآن على البلاد بشكل مطلق، لأن الأقاليم الساحلية خلت كثيرا من سكانها ولم يعد بالامكان بالتالي أن تظهر بها حركة عصيان»[216].

لقد أراح الطاعون اذن السلطان من إخوته المنافسين له على العرش، وأراحه أيضا من بعض العمال المناوئين له. كما أنه استنزف قوة القبائل، هذا

---

(213) نستثني من هذا الحكم الدراسة القيمة التي قام بها د. محمد المنصور حول عهد مولاي سليمان والتي بذل فيها محاولة جادة لتوظيف الطاعون في تفسير الأحداث السياسية :
AL-MANSOUR, 1981, op. cit., t. I, pp. 194-200 et pp. 348-353.

(214) وهم الحسين وعبد الرحمن وهشام.

(215) أكنسوس «الجيش العرمرم» **مخطوط** خ ع، د 965.

(216) AL-MANSOUR, 1981, op. cit., t. I, p. 200.

بالاضافة إلى أنه مكنه من احتجان الثروات التي لم يبق لها وارث[217]. وعلى هذا يمكن القول إن الوباء قام بالمهمة التي عجز عنها السلطان، وكان بالتالي خير حليف له في بسط نفوذه.

غير أن هذا ليس سوى وجه واحد من الأمور. أما الوجه الآخر، فهو أن الطاعون خلف انعكاسات سلبية على مستوى الدولة، بالقضاء على أطرها الادارية والعسكرية والدينية، وهذا دون ذكر الصعوبات الأخرى (اختلال الحياة الاقتصادية). على ضوء ذلك، نرى أن قوة الدولة كانت صورية أكثر منها واقعية. وإذا كانت المملكة قد تمهدت للسلطان، فهذا راجع إلى ضعف القبائل لا إلى قوته. ذلك ما أبانت عنه الأحداث. فلم تكد تمضي سوى بضع سنوات، حتى ظهر مولاي سليمان عاجزا عن التحكم في الموقف عندما اجتاحت البلاد سلسلة جديدة من الثورات.

- الطاعون وجذور الثورات

إن الثورات المشار إليها أعلاه، والتي يعتبرها البعض وكأنها «سيبة» متأصلة في القبائل، يمكن أن نعلل أيضا أسبابها على ضوء نتائج الطاعون.

نشير أولا إلى مشكل الضرائب الذي كثيرا ما استدعى حله استعمال القوة. بالطبع فإن هذا المشكل ليس جديدا. لكن ما ينبغي التأكيد عليه هنا هو الخطورة التي كان يكتسيها في أعقاب كل انهيار ديموغرافي كبير. ذلك أن البنيان الاجتماعي كان يجعل من الصعب على الدولة التعامل فرديا مع الفلاحين. ومن ثم نمت وتوسعت في وقت مبكر المسؤولية الجماعية التكافلية عن دفع الضرائب. فإن انقرضت أسرة عن بكرة أبيها، وهو ما كان يحدث عادة في أعقاب الكوارث الطبيعية، يصبح ما عليها من واجبات عبئا اضافيا على كاهل الأسرة المنتمية إليها بحكم القرابة. وبتشديد المخزن على الأحياء، كان يتسبب في ظهور مقدمات التدمير الداخلي، ودفع القبائل إلى استعمال العنف كوسيلة للرد على السلطة المستبدة. ذلك ما لاحظه روزنبرجي والتريكي بالنسبة للقرنين 16 و17 : «ليس بالامكان تكليف الأحياء، وقد ازدادوا ضعفا، بأداء ما بذمة الضحايا بدون مصاعب ومخاطر اثارة التدمر وحتى الثورات»[218].

---

(217) يخبرنا الزياني بأن السلطان بعث الى سوس بكاتبه محمد الزياني لجمع أموال المنقطعين. والظاهر أن الحصيلة كانت هامة جدا. اذ أن السلطان عين الكاتب المذكور عاملا على الأقليم : «الروضة»، م. س.، ص 181.

(218) ROSENBERGER et TRIKI ; 1973, p. 197.

إلى ذلك ينبغي أن نضيف الحالة النفسية التي عادة ما يفرزها الطاعون. فظهور هذا الوباء المدمر، الذي لم يكن الناس يستطيعون له فهما ولا تفسيرا، كان يعتبر عقابا سماويا عن أخطاء الخلق، وهي حقيقة تبلورت ابان طاعون 1798ـ1800، وسجلها دجاكسون بقوله «إن السكان يسمون الطاعون خيرا ويعتبرونه عقابا من الله على معاصي العباد»(219). على أن فكرة العقاب السماوي كمصدر للوباء، لم تكن تحول دون البحث في المحيط البشري عمن تلصق به التهمة وتوجه ضده النقمة العامة. وكان المخزن هو الذي يعتبر دائما مسؤولا وتوجه إليه عادة النقمة، وإن لعجزه عن منع وقوع المعاصي التي استلزمت عقاب السماء.

وهكذا فإن الطاعون، الذي ملأ الآفاق تجهما والنفوس قلقا واضطرابا، هيأ الأرضية أمام بروز القوى اللامركزية الطاردة التي كانت تجد عملها ميسورا في ظل هذه الحالة المضطربة. إنه الوقت، كما يقول لوكوف وبرابن (Biraben - Le Goff)، الذي تتفجر فيه مشاعر الحنين الى المنقدين ويهيء فيه الطاعون آذانا سميعة وأتباعا مطواعين لسحرة الجماهير ليلعبوا دور الأقنية التي يجري فيها الخوف والثورة ضد الأقوياء(220). ها هو ذا المناخ الذي ينبغي أن نبحث في أجوائه، على الأقل جزئيا، عن العناصر التفسيرية للثورات التي عتّمت السنوات الأخيرة من حكم مولاي سليمان وجعلت الدولة نفسها على شفا الانهيار. على هذا النحو، يمكن أن نفهم بشكل أفضل النجاح الباهر الذي لقيته حركة أبي بكر مهاوش، زعيم أيت علي، الذي تمكن من أن يجمع تحت رايته بربر صنهاجة وزناتة لتشكيل جبهته موحدة ضد المخزن. وإنها لذات دلالة في هذا الصدد أن تكون هذه الحركة، ذات الأهمية البالغة في تاريخ الثورات الشعبية بالمغرب، قد انطلقت متزامنة مع طاعون 1800. يقول محمد الضعيف «وفي رمضان (يناير ـ فبراير 1800) قوى الكلام في الناس على ولد مهاوش وأنه أراد القيام مع البربر واشرارا»(221).

ـ الطاعون وأحداث 1819ـ1820

ارتبط الطاعون الثاني (1818ـ1820) بتردي الأوضاع السياسية والأمنية من جراء ثورات الجبليين، واستئناف زحفهم التقليدي في اتجاه السهول،

(219) JACKSON ; An Account..., op. cit., p. 175.

(220) ''La peste dans le haut Moyen-Atlas'' ; in **Annales E.S.C.**, nov.-déc., 1969, p. 1498.

(221) الضعيف (محمد)، 1986، 317.

كما تزامن مع معارضة رجال الزوايا للمولى سليمان بعد تحريمه للمواسم ومحاولته الحد من نفوذهم السياسي وتقليص امتيازاتهم التقليدية، وبلغت الأوضاع منتهاها من الفوضى والاضطراب بعد هزيمة السلطان أمام البربر في وقعة ظيان (ماي 1819) وتمرد جيش العبيد والأوداية، وما استتبع ذلك من إقدام الثوار على خلع السلطان ومبايعة ابن أخيه مولاي ابراهيم.

إن تزامن الطاعون وهذه الأحداث لا يمكن أن يكون وليد الصدفة صحيح أن الأوضاع بدأت في الاضطراب منذ 1811، إلا أنها لم تصل الى م وصلت إليه من خطورة إلا في زمن الطاعون، ولا يمكننا بالتالي أن نتغافل عن رصد انعكاسات آثار هذه الكارثة الطبيعية عند دراسة الأحداث السياسية والاجتماعية التي واكبتها

* الطاعون وهزيمة ظيان (ماي 1819)

في وسط جبلي فقير، كانت السهول دائما تشكل مركز جذب للقبائل حيث يمكنها التوغل في أرض خصبة لتستأثر بخيراتها وتضمن مراعي خصبة لقطعانها. وواضح أن دوافع هذا الانجذاب كانت تقوى وتشتد في أوقات الكوارث من جذب ومجاعة وانتشار الأمراض الفتاكة. فليس بغريب، والحال هذه، أن نجد قبائل الأطلس المتوسط تتكتل من جديد بقيادة أبي بكر مهاوش لتحقيق حلمها التقليدي في السهول التي أصبحت تبدو سهلة المنال بعد أن انهدت طاقات سكانها من جراء الوباء.

ساعد الطاعون بالفعل إن لم نقل أغرى الجبليين بتصعيد موجة اندفاعهم هاته. ونجد في دراسة حديثة عن ثورات 1819 إشارة واضحة الى هذه الحقيقة

«في 1818، فتك الطاعون مرة أخرى بسكان المدن والسهول والشمالية، وذلك في أعقاب الموسم الفلاحي المأساوي لسنة 1817. والنتيجة أن قبائل بكاملها أصبحت في حالة كبيرة من الضعف، وغير قادرة على الصمود أمام الضغوط (الجبلية) التي كانت عرضة لها إلا بالاعتماد على الدولة»[222].

أرغمت خطورة هذا الوضع مولاي سليمان على ضرورة القيام بعمل عسكري سريع. وهكذا، قام باستعدادات هائلة، على الرغم من كل المصاعب،

(222) CLEMENT (J.F.) "Révoltes et répressions au Maroc" ; in **Al-Assas**, n° 13, janvier 1979, pp. 20-40.

لتوفير كامل حظوظ النجاح ضد خصوم سبق له أن اختبر شدة بأسهم سنة 1805، ثم سنتي 1811 و1812 قرب صفرو وأزرو. ويخبرنا الناصري بالفعل أنه جمع جيشا من ستين ألف رجل[223]. تم استدعاء هؤلاء المقاتلين من مناطق مختلفة : فقد ضم جيش السلطان عبيد مكناس، وجنود الحوز، وجيش الأوداية، وعرب فاس، والشراردة غرب مراكش، كما ضم فرقا من الغرب والخلط وبني مالك، وعناصر أخرى من دكالة وتامسنا وتادلا. هذا بالاضافة إلى الوحدات البربرية وجلها من زمور وأيت أدراسن وأيت يمور المقيمة بمنطقة سيدي قاسم. بيد أن هذه المناطق التي استقدمت منها هذه الوحدات كانت هي المناطق التي استنزفها الطاعون أكثر من غيرها. يقول الزياني :

«وكان الناس في ذلك الوقت في محنة وشدة من الغلاء وارتفاع الأسعار والوباء، والسلطان لا علم له بزيادته... كان الواجب على ابن السلطان الخليفة أن يخبر والده بما عليه الناس من فتنة الوباء والغلاء فيعفيهم من الحركة ويؤخرها عنهم»[224].

واضح من النص أن السلطان أساء توقيت زمن المعركة. وأوضح أيضا أن تعبئة الجيش خلّفت وقعا سيئا في صفوف رجاله في ذلك الوقت الذي كان الوباء يفتك بهم. وكل هذا يعني أن روح الهزيمة كانت تطغى مسبقا عليهم. أما النتيجة، فنحن على علم بها : انهزم الجيش السلطاني شر هزيمة في وقعة ظيان (ماي 1819)، واعتقل السلطان ثم أطلق سراحه في الظروف التي نعرفها[225].

على أن المسألة الغامضة المرتبطة بمعركة ظيان، هي الانقلاب المفاجىء في موقف العناصر البربرية في الجيش السلطاني، ذلك أن هذه العناصر خذلت السلطان في اللحظة الحاسمة وانضمت إلى إخوانها صنهاجة مما جر الهزيمة عليه. هنا يبدو أيضا أن الطاعون يمكن أن يلقي بعض الأضواء الكاشفة.

كانت هذه العناصر البربرية تتكون أساسا من مجموعتين : زمور بقيادة محمد ابن الغازي، وأيت أدراسن بقيادة الحسن بن محمد واعزيز. من بين المجموعة الأولى، نجد بني حاكم، وهم الأجزاء الأكثر تطرفا إلى الجنوب، وبالتالي أكثر عرضة لهجومات الجبليين.

---

(223) **الاستقصا**، 1956، ج 8، ص 124.

(224) الزياني «الترجمان» م. س.، ص 435.

(225) حول تفاصيل هذه المعركة، انظر الناصري **الاستقصا**، ج 8، ص 134 - 136.

استقدمت هذه الوحدات، كما سبق القول، من جهات موبوءة ومستنزفة بالطاعون، وهذا في الوقت الذي كانت معرضة مباشرة لتهديدات الجبليين. فأن تفقد محاربين جددا في المعركة، فذلك من شأنه أن يعود عليها بأسوأ العواقب، لأنها في حالة العودة إلى ديارها لن تكون قادرة على الدفاع عن مصالحها. وإذا قلنا مصالحها، فالمقصود مصالح الأعيان ذوي الاختصاصات في اتخاذ القرار، والأعيان هنا هم قبل كل شيء الملاكون الكبار لقطعان الماشية والخيول. لقد سبق لهؤلاء أن لعبوا ورقة المخزن لتأمين مصالحهم. وطالما أن الظروف كانت تنبىء مسبقا بمصير المعركة، فقد كان لا مناص من اختيار جديد. وهكذا فإن الانقلاب، الذي فسره البعض بالعامل العنصري، لم يكن سوى وسيلة للحفاظ على المصالح المادية في ظل الظروف المتولّدة عن الطاعون.

* الطاعون وثورة فاس

في عام 1819 ثارت فاس على عاملها الصفار، وانتهت الثورة في السنة التالية بخلع مولاي سليمان ومبايعة ابن أخيه مولاي ابراهيم. والحقيقة أن طبيعة هذه الثورة غامضة لقلة المعلومات بشأنها. بيد أن بعض الدراسات الحديثة أفادتنا بأنها لم تكن ثورة برجوازية وإنما هي من صنع «العامة» بقيادة زعمائهم التقليديين. إذا كان الأمر كذلك فهذا يدل على وجود استياء عميق وسط الشعب، وهذا الاستياء هو الذي ينبغي تقصي أسبابه من أجل استجلاء كافة العوامل الكامنة وراء الثورة. ولئن كنا لا ندعي أننا سنقول الكلمة الفصل في هذه المسألة، التي تخرج فوق ذلك عن إطار بحثنا، إلا أننا نعتقد أن ثمة معطيات ينبغي أخذها بعين الاعتبار، وهي معطيات ذات صلة بمجاعة 1817 وطاعون 1818-1820.

يمكن القول، بدون غلو، أن فكرة خلع السلطان بدأت تلوح في الأقل على الأقل منذ 1817. ففي الوقت الذي رمى القحط بكل قوته على البلاد، وعظم الأمر على الناس من شدة الغلاء، أقدم مولاي سليمان على الموافقة على تصدير الحبوب إلى المسيحيين. أدى هذا القرار، كما سبق أن رأينا، إلى موجة من القلق والغضب في صفوف الشعب، وخاصة منه الفقراء. والظاهر أن زعماء الزوايا كان لهم دورهم في تأجيج هذا الغضب، أو قل إنهم وجدوا الفرصة مواتية للدعاية ضد السلطان الذي سبق له أن حاول تقليص نفوذهم. وكانت هناك مصادفة مواتية أخرى لمثل هذه الدعاية بعد أن أقدم على إبطال سنّة الجهاد البحري في السنة نفسها. ويخبرنا القنصل العام لفرنسا، بالفعل، بأن الأولياء،

ذوي النفوذ في المدن والأرياف، دعوا الله في صلواتهم ليريحهم من أيامه ويعوضهم بسلطان جديد[226].

لم يمض سوى زمن يسير على ذلك، حتى ألم طاعون 1818، وهو الوباء الذي كانت تحتار فيه الأفهام وتقصر دونه وسائل العلاج التي كان في مقدور المجتمع أن يقدمها وقتذاك. فلا عجب أن اعتبره المعاصرون غضبا سماويا أنزله الله عقابا على انتشار المناكر بين العباد. وكان مولاي سليمان في وضع يجعله أول من يتبنى هذا التفسير بعدما أصبح عرشه مهتزا بين ضربات الجبليين وزعماء الزوايا. لذلك وجدناه يصب جام غضبه على رعاياه ويحملهم مسؤولية الغضب السماوي بقوله : «إن الله يعاقب المسلمين على معاصيهم بأن سلط عليهم الوباء الذي يفتك بهم»[227]. بيد أن مثل هذا الخطاب لم يكن ليجد أصداء وسط عامة الشعب للأسباب التي ذكرنا بعضها أعلاه.

أما ما يمكن أن يخلف أصداء قوية وسط السكان، فهي الدعاية المضادة التي قام بها زعماء الزوايا بمناسبة هذا الطاعون. نورد هنا بالحرف ما قاله كاستيانوس (Castellanos)

«إن الفريق الحامل لواء المعارضة، رأى في الوباء عقابا أنزله الله بسبب العلاقات التي أقامها السلطان مع الدول الأوربية، وخاصة لإبطاله سنّة الجهاد البحري وإطلاقه سراح الأسرى الأوربيين لديه. وكان شريف وزان، الحاج العربي بن علي، وراء هذه الدعاية»[228].

يتجلى بكل وضوح أن الطاعون استغل من أجل الدعاية السياسية، ولا بأس من التذكير هنا، بأن رائد هذه الدعاية الوارد ذكره في النص، هو الذي خلع مولاي سليمان في فاس بالاشتراك مع زعيم الزاوية الدرقاوية، مولاي العربي، وزعيم الجبل، أبي بكر مهاوش.

ثمة جانب آخر مرتبط بالطاعون استغله أيضا رجال الدين للدعاية ضد السلطان والنيل من شعبيته، ونعني به موقفه وسلوكه إزاء الوباء.

غادر هذا الأخير فاسا في بداية يوليوز 1818، أي بعد حوالي أسبوعين من ظهور الطاعون بها، واعتصم بمكناس إلى نهاية دجنبر، مبالغا في اتخاذ الاحتياطات حتى لا تصيبه العدوى. ثم خرج من مكناس في اتجاه الرباط. ومع

(226) A.E.P. / CCM., t. 25, Tanger 12 avril 1817.
(227) A.EP. / CCM., t. 26, Tanger 3 nov. 1818.
(228) CASTELLANOS **Historia de Marruecos** ; Tanger, 1898, p. 502.

أن الزياني يؤكد أنه ترك الوباء «خفيفا» لما خرج من مكناس[229]، فإن رواية القنصل العام لفرنسا، سوردو، تقول بالعكس إن عدد الموتى بها كان يصل وقتذاك إلى 150 ضحية في اليوم[230]. بعد قضاء عيد المولد النبوي بالرباط (12 ربيع الأول 10/1234 يناير) انطلق الركب السلطاني في اتجاه مراكش التي كانت ما تزال سالمة.

مهما كانت الدوافع التي جعلت مولاي سليمان يغير مقر إقامته من الشمال إلى الجنوب، فإن تنقلاته في زمن الوباء لابد وأن تثير استياء الناس، لأنها كانت تبدو وسيلة للفرار، وهو الأمر المحظور شرعا، إذ يعتبر خروجا عن السنة التي تقرر حتمية المصير الانساني. والمهم أن فرصة جديدة أتيحت لخصوم السلطان لشجب هذا السلوك والنيل بذلك من شعبيته. وكان خطابهم يصادف بالطبع أذنا سميعة لدى العامة

«إن الطاعون المتفشي في المغرب يساهم في تزايد السخط بين الناس، وهم مقتنعون بأن صاحب الجلالة تعمد إن صح التعبير إدخال هذا الوباء إلى مملكته؛ وباستثناء الطلبة، فإن الجميع ينحي عليه باللائمة، سيما وقد شاع الخبر بأنه يكثر من الاحتياطات لوقاية نفسه»[231].

وهكذا، وعلى عكس الطاعون الأول، الذي ساعده على تعزيز نفوذه، فإن هذا الثاني كان من العوامل التي أسهمت في تقليص هذا النفوذ.

ـ مجاعة 1825ـ1826 وإعادة توطيد الحكم المركزي.

إن بداية عهد مولاي عبد الرحمن، الذي تقلد زمام الحكم بعد مولاي سليمان، تعد فترة غامضة، نظرا لأن الكتاب يمرون عليها سريعا ويقتضبونها اقتضابا. لكن يفهم من بعض القطع المتناثرة أنها كانت فترة حالكة، ظل خلالها الحكم المركزي مهتزا أمام تصاعد موجة الثورات. يخبرنا صاحب «الابتسام» في هذا الصدد بأن جل القبائل، بين سوس ووجدة، رفضت الدخول في طاعة السلطان الجديد، ثم يضيف «وتعسّر عليه علاجهم لضعفه وقلة ماله وعساكره وبقي ممنوعا من السير للحوز مدة لضعفه خائفا على نفسه وعسكره»[232].

(229) الزياني، **الروضة السليمانية**، م. س.، ص 192.
(230) A.E.P. / CCM., t. 26, Tanger 12 janvier 1819.
(231) A.E.P. / CCM., t. 26, Tanger 4 mai 1819.
(232) **الابتسام**، م. س. ص 71.

تلك كانت الحالة عندما فاجأت البلاد مجاعة 1825-1826، فكانت أولى نتائجها أن أرغمت كلا من القبائل المتمردة والمخزن على وقف القتال بعد أن وجهت لكل منهما ضربات قاصمة. إثباتا لذلك، نورد هذه الشهادة التي أدلى بها القنصل الفرنسي سوردو في 4 أكتوبر 1824 «إن القتال بين السلطان والثوار في نواحي فاس قد توقف بسبب افتقار كلا الطرفين إلى الرجال والخيول»[233]. ومع استمرار الشدة، وانصراف القبائل إلى الاهتمام بالبقاء، وفناء الكثيرين مع أفرادها، وضعف القوة الجسدية للأحياء منها، تهيأت الظروف أمام المخزن، على الرغم من ضعفه، للسيطرة من جديد على الموقف. ذلك ما عبر عنه صاحب «الابتسام» بقوله «فأنزل الله بهم (أي أنزل المجاعة بالقبائل) فخلت بذلك النازل ديارهم وتشتت رمادهم وماتت مواشيهم وركبهم المحل ووقع فيهم الخلل وضعفت شوكتهم وعظمت بليتهم ومات عتاتهم وأبطالهم، فعند ذلك تمهد الأمر للأمير واستقام له النفير والمسير وتيسر له الأمر والنهي»[234].

د - النتائج النفسية

عادة ما نرى الناس في أوقات الوباء، يكثرون من الصدقات، ويقبلون على المساجد والأضرحة متضرعين طلبا للرحمة ورجاء أن يزيل عنهم خالقهم ما هم فيه من ضيق وعسر. بيد أن الموقف يختلف لدى البعض، خاصة بعد انقشاع شبح الفناء، حيث تظهر في المجتمع نزعة أخرى على طرفي نقيض من الأولى، تندثر معها كل الكوابح الأخلاقية، فيندفع المندفعون إلى الانكباب على الملذات والفجور ومعاقرة الخمور، فرحا بالنجاة. في ظل ضعف السلطة المركزية، تظهر هذه النزعة أقوى ما تظهر لدى الجند. فليس غريبا والحال هذه أن نجد جند الأودايا والعبيد يعمدون في رمضان 1214/يونيو - يوليوز 1820، أي مباشرة بعد إقلاع الطاعون عن فاس، إلى حارة اليهود بهذه المدينة فينهبونها، ويسبون النساء، ويفتضون الأبكار، ويشربون الخمر في نهار رمضان[235]. صحيح أن الأمر يتعلق بجند متمردين، مع ذلك ينبغي ألا ننسى أن هؤلاء الجند عاشوا بالأمس القريب تحت وطأة الموت الذي أفنى الكثيرين منهم، فما أن عادت السكينة حتى شعروا بالحاجة إلى التعويض، فعاثوا وأفرطوا.

---

(233) A.T. / 180, Tanger 4 octobre 1825.

(234) **الابتسام**، ص 71.

(235) الناصري، **الاستقصا**، 1956، ج 8، ص 143.

بجانب هذه النزعة، أفرز طاعونا عهد مولاي سليمان جوا من القلق واليأس أوحى للمعاصرين بقرب نهاية العالم خصوصا بعد أن انحل حبل الأمن وعمت الاضطرابات مختلف جهات البلاد. من حسن الحظ أننا نتوفر هنا على نص مفصل كتبه محمد بن حمزة المكناسي سنة 1821-1822، وهو نص فريد من نوعه، لذا يجدر بنا أن نقف عنده قليلا(236).

يبدأ ابن حمزة كلامه بالحديث عن تفشي الفساد في مجتمعه، معللا أسبابه بهلاك «أهل الصلاح» من جراء الطاعون، فيقول

«وأما زماننا الذي نحن فيه... (فقد) كثر فيه الفتن وقل الحياء والايماء وساد أهل الظلم والطغيان وفشا فيه الفساد، سيما بعد الطاعون الذي عم أقصا بلاد المغرب وأدناه سنة أربع عشر من القرن المذكور (13هـ)، وبعد فناء خلق كثير بسببه من الخواص والعوام، غير أنه بقيت بقية ممن يرجى خيرهم ويومن شرهم لم تنعدم بالكلية وهم في أقل القليل، ثم صارت تلك البقية تضعف إلى أن عم الطاعون أيضا في المرة الثانية سنة أربع وثلاثين من القرن المذكور، فانقطعت تلك البقية بالكلية، فعظمت الفتن، وكثرت الأهوال واشتد الحال على الضعفاء والمساكين في السنة المذكورة وما بعدها إلى السنة التي نحن فيها».

يمضي المؤلف بعد ذلك في تعداد الأهوال التي تلاحقت على مجتمعه، فيقول «وكثر الشروز وسفك الدماء ونهب الأموال والغارات وقطع الطرق وانحصرت المدن وصار القوي يأكل الضعيف وقل الأمان في البعيد والقريب».

ثم يستطرد متحدثا عن سلوك معاصريه، فيرميهم بالفجور والزور والطمع. وابن حمزة يعمم هذا الحكم على الجميع، على «الكبير والصغير والمأمور والأمير والمشرف والشريف»، ويخلص بعد ذلك إلى تقرير هذه النتيجة

«بحيث لا تجد خيرا في هذا الزمان ولا في أهلك فضلا أن ترى من هو منسوبا للفقرا (كذا) ولأرباب طريقة مجاهدا على حفظ دينه فإن وجدته في أقل القليل تجده ذليلا حقيرا بين أهله وأبناء عمه وهو على الحالة التي أخبر بها الصادق الصدوق صلى الله عليه وسلم بقوله المومن في ءاخر الزمان القابض على دينه كالقابض على الجمر وإن الدين بدأ غريبا وهو الآن أغرب الغرباء».

---

(236) أورده الوزاني (عبد الله بن الطيب) **في الروض المنيف، مخطوط**، خ ع، ك 2304، ورقتا 157-158.

إن آلام الطاعون، الذي حل ولما تندمل جراح سابقه، وهلاك الفقهاء، وتقلص نفوذ المخزن، ثم وفاة مولاي سليمان وتركه البلاد كسفينة تتقاذفها الأمواج، كل ذلك أفرز الشعور بقرب نهاية العالم. وهكذا وضع المؤلف بين أيدينا وثيقة سيكولوجية هامة، نلمس في تضاعيفها، مهما بولغ فيها، ما ساد مجتمع عصره من انهيار على جميع المستويات، وما تميز به من قلق وميل إلى التشاؤم ونزوع إلى اليأس. وتلك إحدى النتائج النفسية التي أسهم الطاعون في إفرازها.

استخلاص عام

حدثت في بحر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر خمس مجاعات طاحنة وأربعة طواعين مدمرة، وهذا دون اعتبار المجاعات والأوبئة المحلية، أو تلك التي لا نتوفر بصددها على معلومات كافية. وكانت هذه الأزمات تدوم بمعدل سنتين في كل مرة، وبعضها يستغرق ثلاث وحتى أربع سنوات. إنها فترة مأساوية إذن، لا تقل خطورة في هذا المجال عن القرنين السادس عشر والسابع عشر، اللذين بلغت حصيلتهما ست أزمات ديموغرافية[1].

* * *

بالنسبة للمجاعات، رأينا أنها تلاحقت في سنوات 1721ـ1724، 1737ـ1738، 1776، 1779ـ1782، 1817ـ1818، 1825ـ1826. وهذا يعني أنها كانت تتردد بعد كل 13 سنة كحد أدنى، و38 سنة كحد أقصى. أما أسبابها، فترجع إلى الجفاف، ثم إلى غزوات الجراد، كما حدث في 1776 و1779ـ1782، هذا بالاضافة إلى العوامل البشرية، كالحروب الأهلية.

كانت أزمة المجتمع خلال هذه المجاعات أزمة خبز قبل كل شيء، وهي تذكرنا بالأزمات الغذائية التي عرفتها أوربا قبل تصنيعها والتي أوضح موفري وكوبر (Meuvet - Goubert) آليتها ودور الغلاء كعامل رئيسي في وقوعها[2]. فمحصول سيء، بفعل الجفاف أو الجراد، كان يؤدي إلى القحط وارتفاع أسعار المواد الغذائية خاصة القمح والشعير. بيد أن محصولا واحدا سيئا لم يكن يعني حتما وقوع مجاعة، لأن الناس اكتسبوا خبرة في مواجهة السنوات العجاف، وكانوا يدخرون الأقوات تحسبا لها. أما الأزمات الخطيرة، فترجع إلى تتالي محصولين سيئين، كما حدث في سنوات 1824ـ1825. فإذا جاء محصول ثالث سيئا، فهي المصيبة العظمى، كما حدث في 1721ـ1724، و1779ـ1781. حينئذ كانت

(1) ROSENBERGER et TRIKI, 1974, op. cit., p. 68.

(2) GOUBERT (P.) : **100.000 provinciaux au XVII[e] siècle**, Flammarion, Paris, 1968, p. 100.

الأسعار تسجل ارتفاعا جنونيا تزيد من تسعيره عوامل مختلفة يلعب فيها الانسان الدور الأول، مثل أخطار الطريق مع صعوبة المواصلات الناجمة عن هلاك الدواب، وهذا بدون أن نغفل عامل الاحتكار الذي كان يمارسه الأقوياء خاصة في ظل ضعف السلطة المركزية. يقول ابن الحاج عن هذا العامل الأخير : «ولما نزلت مسغبة 1150 احترف الرماة (بفاس) ببيع الزرع من البادية (وكانوا) يمنعون المساكين من شرائه ويشترونه بما شاءوا ويبخسون الناس أشياءهم واذا باعوا يبيعون بما شاءوا»[3].

للأسف لم نتمكن من تتبع وتحليل آليات سلوك الأسعار، لأن الاخباريين لا يشيرون إليها إلا في أوقات الغلاء أو الرخاء المفرطين، هذا فضلا عن تنوع المقاييس والمكاييل التي كانت تختلف من منطقة لأخرى، بل وداخل نفس المنطقة. لكن يمكننا، اعتمادا على مؤلفي كتاب «تاريخ المغرب»[4]، أن نحاول إعطاء ارتفاع الأسعار زمن المجاعة بعض مضامينه الاجتماعية. فقنطار قمح (45 كلغ) الذي كان يباع في أوقات الرخاء على عهد مولاي اسماعيل بـ 13 درهما (بالعملة الحالية)، ارتفع في مجاعة 1780 إلى 190 درهما، أي أنه تضاعف 16 مرة، ويمكن تعميم هذه النسبة على باقي المواد الأساسية الأخرى، خاصة الشعير.

ولمقاربة انعكاسات هذا الغلاء على الغذاء اليومي للمستهلكين، ينبغي أن نعلم أن أجرة عامل يومي كانت تتراوح بين درهمين وأربعة دراهم، ينفق منها درهما واحدا ونصف درهم في اليوم لتغذية أسرته المتكونة، عموما، من خمسة أفراد. من هنا ندرك كيف أن هذا المدخول المحدود كان يصبح ضربا من السخرية بعد اشتعال الأسعار في أوقات المجاعات. فثمن خبزة من 300غ الذي لم يكن يتجاوز في الأوقات العادية 0 درهم و20س، كان يرتفع إلى ما فوق 3 دراهم[5].

يقودنا هذا التوضيح بداهة إلى تقرير هذه النتيجة، وهي وجود تفاوت كبير أمام الموت جوعا بين الفقراء والأغنياء. من الحق أن المجاعة لم تكن تحترم أحيانا المعايير الاجتماعية، فتضرب ضربا عشوائيا. ذلك ما تؤكده احدى المراسلات الأجنبية بإشارتها إلى أن الأغنياء كانوا يموتون هم أيضا خلال

(3) الدر المنتخب، ج 8، حوادث 1150هـ.

(4) BRIGNON, op. cit., p. 273.

(5) م. ن.

مجاعة 1737[6]. وهو ما يؤكده ضمنيا محمد الضعيف بقوله متحدثا عن المجاعة نفسها «وما أغنى مال ولا متاع في طلب القوت»[7]. لكن مثل هذه الحالات استثنائية، لأن الأغنياء عادة ما كانوا يدخرون الأقوات تحسبا للمستقبل المجهول، وكان بامكانهم اقتناؤها بشتى الطرق. لنترك محمد الضعيف يحدثنا عن سلوكهم في الرباط خلال مجاعة 1781 : «وخرج أهل الرباط ليلا بالفضة والذهب واشتروا من النصارى وسق ثلاثة سفن (كذا) من الزرع الصويني وعبروه على ضوء الشمع في الليل وأدخلوه لديارهم وهم الأغنياء منهم»[8].

بديهي أن مثل هذه الوسائل كانت تعوز الفقراء لإنقاذ حياتهم، وبالتالي يحق لنا القول إن الموت كان الضيف الأكثر ترددا عليهم في أوقات المجاعات. وبافنائهم بالجملة، وبشكل دوري، كانت هذه المجاعات تلحق أشد الضربات بالبلاد، إذ أنها كانت تقوض وتدمر القوة المنتجة الأساسية للمجتمع الانسان.

بيد أن المجاعات لم تكن وحدها في الميدان. فقد كان الطاعون رفيقها في انتهاك السير العادي لعملية إنتاج السكان.

* * *

يقول دجاكسون إن الطاعون كان يضرب المغرب بعد كل عشرين سنة[9]. والواقع أن هجومه لم يكن يخضع لمثل هذا الايقاع المنتظم. فقد رأينا أنه بدأ، في الفترة موضع الدراسة، في سنوات 1742-1744، وهذا بعد مرور أزيد من نصف قرن على آخر هجوم له (1678-1680). ثم بعد عودته المبكرة (1747 - 1751)، نراه يحتجب لمدة طويلة أخرى تناهز نصف قرن، بحيث لم يظهر إلا في 1798 - 1800، ليعود مرة أخرى بعد حوالي 18 سنة (1818 -1820)، وهذه العودة الأخيرة كانت آخر زيارة له للبلاد في القرن التاسع عشر، إذ أنه لم يظهر من جديد إلا في بداية القرن العشرين.

أشرنا فيما سبق إلى أن هذه الطواعين لم تكن متوطنة، بل كانت تنطلق من انسان خارج المغرب إلى انسان داخله. وعلى هذا لا يجوز دراستها بمعزل عن أوبئة البلدان المجاورة، خاصة الجزائر. بالنسبة لهذا البلد، فقد سبق لبربروجر (Berburgger) أن أقام قائمة للأوبئة التي تعاقبت عليه من القرن

---

(6) MICHEL, 1982-83, op. cit., 1, p. 114.

(7) الضعيف (محمد)، 1986، ص 126.

(8) م. ن.، ص 183.

(9) JACKSON (J. Grey) : **An account of the Empire of Morocco**, London. 1809, p. 187.

السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، ومن خلالها نرى أنه نال حصة الأسد بالمقارنة بالمغرب[10]. وقد علل رونو (Renaud) هذا التفاوت بين البلدين بكون الأول كان أكثر عرضة للعدوى بحكم علاقاته مع الباب العالي والايالات العثمانية الأخرى، باعتبار أن مصدر الوباء كان دائما هو مصر والقسطنطينية[11]. والنتيجة التي يمكن استخلاصها من قائمة بربروجر أن أوبئة الجزائر كانت تتابع زحفها أحيانا إلى المغرب عبر هضاب وهران وسهوب ملوية. ذلك ما حدث بالنسبة لطاعوني 1742ـ1744 و1798ـ1800، اللذين ظهرا أولا في المدن الشمالية والشرقية، كفاس وتازة، ومنها امتد زحفهما إلى السواحل وباقي البلاد. أما وباء 1818ـ1820، فقد رأينا أن الحجاج هم الذين نقلوه مباشرة من مصر إلى طنجة عبر الطريق البحري، ومن هذه المدينة امتد إلى المناطق الداخلية وباقي السواحل. على أن الاستثناء الوحيد هو وباء 1747ـ1751، الذي تدل كل القرائن على أنه لم يفد هذه المرة من الخارج، وإنما انطلق من الداخل، وبالضبط من سوس، ومنه زحف إلى الشمال. سبق القول إن هذا الوباء مجرد امتداد لسابقه (1742ـ1744)، وهي نفس الملاحظة التي سجلها روزنبرجي والتريكي بصدد طاعون 1602 الذي انطلق أيضا من سوس وكان ذيلا لطاعون 1597[12]. كما لوحظت نفس الظاهرة في سنتي 1915ـ1916[13]، ثم في سنوات 1932ـ1935[14].

* * *

إذا كانت طواعين المغرب في هذه الفترة مرتبطة بتلك التي ظهرت في البلدان المتوسطية، فهذا يجعلنا لا نشك في كونها طواعين حقيقية، طالما أنه توجد معلومات في تلك البلدان كاشفة عن طبيعتها. بيد أن مصادرنا لم تبخل علينا بأوصاف لأعراضها، كالدماميل، والاسهال والقيء ؛ هذا بالاضافة إلى ما تضمنته من إشارات أخرى ذات دلالة فهي تشير، من جهة، إلى هيجانه في فصل الربيع، كما نجد عند ابن الحاج «وفي شهر جمادى الثانية ورجب وشعبان (1164هـ/أبريل ـ ماي 1751) هاج المرض الوبائي بحضرة فاس

(10) **Mémoire sur la peste en Algérie**, un Explorateur Scientifique de l'Algérie, Sciences médicales, Paris, 1847, (2 vol.), t. II, p. 239.

(11) RENAUD, 1939, op. cit., p. 317.

(12) ROSENBERGER et TRIKI, 1974, p. 44.

(13) RENAUD (H.P.J.) "La peste au Maroc", in **Revue d'Hygiène**, mars 1922, p. 201.

(14) RENAUD, 1939, p. 318.

وجميع بلاد المغرب»[15] ؛ أو عند الفشتالي «حتى ازداد أمره (وباء 1213هـ) واشتد بأول شوال (8 مارس 1799)»[16]. وهي تشير، من جهة أخرى، إلى انقطاعه مع بداية فصل الصيف «ولم يزل أمره (طاعون 1164هـ) يتفاقم إلى منتصف شعبان (8 يوليوز) فكفَّ».

إن هذا الايقاع يتفق مع ما نعرفه عن النسق الموسمي للطاعون. فمن المعروف أن جرثومته، التي اكتشفها يارسن (Yersin) عام 1894، تنتقل بتزاوج عاملين رئيسيين البراغيث ونوع من أنواع الحيوانات القارضة، كالجرذان. إلا أن الدور الرئيسي هو الذي تقوم به البراغيث، إذ أنها هي التي تنقل العدوى إلى الانسان بامتصاص دم خلية موبوءة وزرعه في خلية سالمة[17]. والحال أن نشاطها يخضع للعامل المناخي ؛ فهي تتوقف عن الانتاج مع اشتداد الحرارة وتموت إذا انخفضت درجة الرطوبة عن 80 في المائة. ذلك ما يفسر امتداد الطاعون في فصل الربيع، بحيث تكون أشد الشهور خطورة هي مارس، أبريل، ماي. ذلك ما يفسر أيضا بقاء المناطق الصحراوية بمنجى. وقد أشرنا إلى أن هذه المناطق لعبت دور خزان بشري لتعويض الفراغ الحاصل في السهول.

بيد أن ما قلناه عن دور البراغيث ينبغي ألا ينسينا بنية الاستقبال التي كانت ترفع من قابلية الوسط للعدوى. وقد لاحظنا أن من أهم العوامل المساعدة على انتشارها، تنقلات الجيوش، وفرار الناس، وإهمال الأساليب الوقائية. أما بخصوص القحوط، التي غالبا ما تزامنت معها، فلا شك أنها سهلت مأموريتها. لكن دون أن يكون لها الدور الحاسم. ذلك أن حالة التغذية لا تؤثر، حسب المعطيات الحديثة، في فعالية الوباء[18]. وإذا كان هناك تلازم في الغالب بين المجاعات والطواعين، فهذا لا يعني أن الأولى تسببت في الثانية. أو زادت من حدتها (اللهم إلا فيما يخص تنقلات الجائعين الذين ينشرونها). بل لأن الطاعون يمكنه أن يؤدي إلى المجاعة عن طريق تقليصه اليد العاملة، ومنعه عملية البذر، وجمع المحصول. وقد سجل الفشتالي هذه الملاحظة الهامة بقوله عن

---

(15) **الدر المنتخب**، ج 8، ص 175.

(16) الفشتالي، ورقتا 165-126.

(17) حول جرثومة الطاعون وأعراض المرض، انظر BIRABEN, 1976, t. I, p. 215

(18) LEBRUN (F.) "Les crises démographiques en France aux XVII[e] et XVIII[e] siècles", in **Annales E.S.C.**, mars-avril, 1980, p. 209.

طاعون 1213هـ : «وفيه كان الغيث الكبير وجاءت صابة لاكن لا يقدر الأحياء على خدمتها لقلتهم اليوم»[19].

أما بخصوص العواقب الديموغرافية لهذه الطواعين، فمن الصعب معرفتها. لقد رأينا أن مصادرنا تتحدث عن عدد الموتى الذي يصل في اليوم الواحد إلى 400، و500، بل وحتى إلى 1.000 و2.000 ضحية، مما لاشك فيه أن هذه التقديرات مبالغ فيها، لكن من المؤكد أن الطاعون كان يفتك، عند احتداده، على الأقل بعشر السكان الحضريين، وقد تكون هذه النسبة أكبر بكثير أحيانا، كما حدث في طاعون 1798ـ1800 الذي يذكرنا بالطاعون الأسود بقوته التدميرية. وما علينا هنا إلا استحضار بعض الأرقام التي قدمت عن عدد الضحايا في أوربا من جراء هذا الوباء الخطير، كطاعون برشلونة (1651ـ1653) الذي خلف 20.000 ضحية من مجموع 44.000 نسمة[20]، أو طاعون مرسيليا (1720)، الذي فتك بنصف سكان المدينة (50.000 ضحية)[21]، أو الخسائر التي سجلت في فرنسا بين 1600ـ1670، والتي تراوحت بين 2.205.000 و3.360.000 ضحية[22]، ما علينا إلا استحضار مثل هذه الأرقام لنتصور مدى التدمير الذي أحدثته الطواعين الأربعة التي ضربت المغرب في فترة موضع الدراسة.

وليست الكارثة التي كانت تحل بالبلاد في عدد الأشخاص الذين ماتوا، بقدر ما هي في السن التي ماتوا فيها ؛ فالموت بالطاعون يقل مع العمر، مما يعني أن الفئات الأكثر تعرضا للاصابة هي فئات الأطفال والشباب والنساء، بمن فيهن نسبة هامة من الحوامل. يذكر دجاكسون بالفعل أن طاعون 1798ـ1800 ضرب أول من ضرب الشباب، وبعدهم النساء والأطفال، وفي المرتبة الأخيرة الناس الهزل والمستنزفين[23]. وفي المصادر المغربية أمثلة متعددة عن تهالك الأطفال ابان الطاعون، كهذا المثل الذي يقدمه القادري في ترجمة الفقيه السـي المودن، من أعيان فاس، حيث قال : «تزوج (امرأة) وولد معها أولادا وتوفيت هي والأولاد بالطاعون»[24]. ويخبرنا أحمد بن عجيبة بأنه فقد جميع أولاده في

---

(19) الفشتالي، ورقتا 125ـ126.
(20) BIRABEN, 1976, t. I, p. 215.
(21) م. ن.، ص 255.
(22) م. ن.، ص 308.
(23) JACKSON, An account..., 1809, op. cit.
(24) نشر المثاني، ج 4، ص 228.

طاعون 1798-1800[25]. بينما يخبرنا الضعيف بأن أخاه فقد في هذ الطاعون ولده وزوجته[26].

* * *

وهكذا حالت الكوابح المالتوسية، خلال هذه الحقبة، دون حدوث أي تقدم ديموغرافي في البلاد. فقد كان التطور يسير وفق خط متكسر، يرتفع إلى أعلى ثم يتراجع إلى الوراء، وتتراتب فيه حركات الصعود والهبوط حسب فترات زمنية معينة، تختلف في طولها من مرحلة لأخرى.

ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر كان عدد السكان يتراوح بين 4 و5 ملايين. ثم جاءت مجاعة 1721-1724 لتهبط بعددهم إلى حد كبير. وبعد فترة تصاعد قصيرة، تمثلها السنوات المتبقية من حكم مولاي اسماعيل وبداية عهد خلفائه، جاءت مجاعة 1737-1738 لتهبط بالعدد مرة أخرى. بعد ذلك تقلبت الأوضاع دون أن تعبر عن اتجاه معين، إلا ما سجله طاعونا منتصف القرن من هبوط جديد. ثم عاد السكان إلى التزايد في العقدين الأولين من عهد سيدي محمد ابن عبد الله، لكن مجاعة 1776، 1779-1782، كانت شديدة الوطأة بحيث إنها عصفت بخمس السكان على أقل تقدير. ثم أتيحت للبلاد فترة ممتدة لتعويض خسائرها، إلا أن تلاحق الكوارث في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التالي أدى إلى نزيف ديموغرافي كبير، بحيث أصبحت البوادي تبدو خالية من السكان وكان المسافرون يطوون المراحل خلال أيام متعددة دون أن يصادفوا مخلوقا بشريا في طريقهم. ويمكن القول إن عدد السكان تقلص إلى حوالي ثلاثة ملايين نسمة[27].

مقابل هذا الانهيار الديموغرافي، الذي كرس تخلف البلاد، كانت أوربا تشهد تقدما ديموغرافيا كبيرا كان من أهم العوامل التي ساعدتها على تحقيق قفزاتها وإنجاز ثوراتها الصناعية والفلاحية والعلمية، حتى إذا ما ظهر الأسطول الفرنسي في عرض شواطىء الجزائر عام 1830، وعلى مشارف المغرب، كانت المواجهة المأساوية بين عالمين تفصلهما هوة كبيرة. وفي الوقت الذي كان علي المغرب، في هذه الحالة التعساء، أن يواجه الهجمة الشرسة من قبل أوربا الرأسمالية، ظهرت به الكوليرا، التي حلت محل الطاعون، ابتداء من 1834، فزادت من ضعفه وعجزه عن الصمود.

(25) MICHON (J.L.) **Le soufi marocain Ahmed Ibn Ajiba**, Paris, 1973, p. 70.

(26) الضعيف (محمد)، 1986، ص 315.

(27) BRIGNON, 1967, op. cit., p. 273.